

البَابُ الثَّالِثُ

مدرسة البصرة

obeykandi.com

الفصل الأول

مدرسة البصرة الأولى

في القرن الأول وأوائل القرن الثاني

١ - أثر أبي موسى الأشعري الزهدي :

كانت البصرة ثغر العرب - حين مصرت في السنة السابع عشرة من الهجرة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب . بالقرب من الإيلة ، ميناء العجم . وسكانها عرب الشاهل من قبائل مضر ، والثغور تعرف الواردين والصادرين . فكانت وافد الأجنام من الهند والسند ومن زنوج أفريقيا وكانت البصرة تطل على تخوم فارس القديمة . واعتبرت عاصمة خراسان ، فأقن إليها الفرس بالذات ومن وفد على البصرة من الفرس قبيلتان أو فخذان فارسيان هما الأساورة والسياجة ، فكانت البصرة مهجنة ، مزيجاً غربياً . وأرسل إليها عمر بن الخطاب القارئ القديم لمحمد ﷺ ، أبا موسى الأشعري ، ليقري سكانها القرآن ، وليصلح طرقها . وليقيم أمر الإسلام فيها .

وضخمت الحياة فيها وكبرت تجارتها ، وازدادت غنى وثروة ، فأترف أهلها وعظم فيها الفسق ، بحيث شكوا إليها على عهد معاوية زياد بن أبيه من بيوت الفسق واللعب فيها . والترف واللهو واللعب يستدعي العبادة والجد والزهد والتفكير .

وكانت البصرة عثمانيّة «في مجموعها» ، هذا بالرغم من سكن قبائل عبد قيس الشيعية فيها . ولم تكن عثمانيّة ترفاً أو تكاسلاً أو جبناً فقط ، كما تصور بعض الباحثين : بل كان السبب في هذه العثمانيّة هو شيخها وشيخ قرائها - أبا موسى الأشعري ، الذي أثر لنفسه ولها العافية والسلامة . كانت طبيعة المصر ، غناه وترفه وهجته . مؤدياً إلى موقف من الحياة ثابت ، يختلف عن طبيعة البلد الآخر - الكوفة - المتقلبة المزاج ، غير الثابتة ، المضطربة القلقة .

وشاركت البصرة في حرب الجمل - نتيجة لعثمانيّةها ، وقد كلفها هذا الكثير . ثم عادت لنظرتها في الحياة ، النظرة المتساهلة الطيبة ، فبايعت علياً ، ثم بايعت معاوية بعده ولم تشيع لا لهذا ولا لذلك ، بل سرعان ما أخرج منطق حياتها المرجحة : الذين يتولون الاثني معاً ، مرجئين أمرهما إلى الله ، كما

أخرج سياق فكرها المعتزلة ، أصحاب المتزلة بين المتزلتين . متوسطين المسائل ، بعيدين عن الغلو ،
وحيث اعتنق مفكروها من المعتزلة مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كان هذا المبدأ عندهم
بالقلب أو باللسان ، ولم يكن باليد أبدا . ولذلك سمي معتزلتها بمخانيث الخوارج .

ولدت البصرة عجزا شمطاء ، خالية من النزوات ، ولكنها غنية مترينة بكل الحلى ، مصبوغة
بكل الأصباغ والألوان ، بيضا ولدت الكوفة وبقيت طول حياتها - كما سنرى - بعد : شابة لعبوا
تتقاذفها النزوات والأهواء والشهوات ومن العجب أن تعيش هذه العجز الشمطاء أبدا خلال
التاريخ ، وأن تبقى حتى عصورنا هذه ، كأنها ساحرة أبدية ، بينما أنهكت النزوات الكوفة الشابة
فاتت ، ولم يبق لها أثر في أيامنا هذه ، سوى الأطلال والدمن والذكريات .

وإلى البصرة ، أتى كما قلت ، القسارئ القديم لمحمد ﷺ ، ومن كبار رجال أصل الصفة
العابدين المتبتلين . لينشئ حلقة قرآنية فيها . كان أبو موسى الأشعري من العباد - كما قلت ، ومن كبار
القراء . وقد سبق أن تكلمت عن أبي موسى الأشعري ، ولكنني سأعود مرة ثانية إلى توضيح كثير من
جوانب حياته ، لأنه مما لاشك فيه أن هذا الصحابي قد صنع البصرة وحياتها الروحية بصغته .
كان أبو موسى الأشعري واحدا من أبرز قراء الرسول ﷺ . وقد أجمعت المصادر على أن الرسول
كان يستمع إلى قراءته . هو وزوجه عائشة ، فلقد مرا بيته ذات ليلة ، وأبو موسى يقرأ ، فقاما
فاستمعا لقراءته ، ثم إنها مضيا ، فلما أصبح لبي النبي ﷺ أبا موسى وقال له : يا أبا موسى ، مررت
بك البارحة ، ومعى عائشة ، وأنت تقرأ في بيتك . فاستمعنا لقرآنك . لقد أوتيت مزامرا من مزامير آل
داود . ورد الصحابي الواثق بقراءته . يا نبي الله . أما أتى لوعلمت مكانك . لحبرت لك القرآن
تجيرا . وقد فاضت الآثار في جمال صوته وقراءته . بحيث كان عمر بن الخطاب يقول له . حين يجتمعان
« ذكرنا ربنا عز وجل » فيقرأ أبو موسى الأشعري ويستمع المسلمون ويطربون . بل اعتبر المسلمون قرآن
أبي موسى الأشعري موسيقاهم الخالدة ، بحيث يقول أبو عثمان النهدي « صلى بنا أبو موسى الأشعري
رضي الله عنه صلاة الصبح . فما سمعت صوت صبح ، ولا يربط كان أحسن صوتا منه (١) »
والربط ، ملهاة أو آلة فارسية تشبه العود . كان يحملها المغني يضعها على صدره ويضرب . ونحن نتبين
من هذا النص أن الصبح ، وهي الدفوف . والأعواد كانت تستخدم في هذا الوقت وتنتشر الموسيقى في
أرجاء البصرة . ولكن موسيقى أبي موسى الأشعري القرآنية كانت ترتفع حينئذ فوق كل الموسيقى الدنيوية
وكان يسير بالبصرة ، فسمع الناس يتحدثون . وأنصت لفصاحتهم وشغلهم بالدنيا في أحاديثهم ، وكان

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٢٥٨ ، وانظر : صفوة الصفوة ج ١ ص ٢٢٥ وما بعدها

معه أنيس بن مالك فقال : ما لي يا أنيس : هلم فلنذكر ربنا فإن هؤلاء يكاد أحدهم أن يفري الأديم بلسانه . ثم قال : يا أنس ما أبطأ الناس عن الآخرة وما ثبرهم عنها . فقال أنس : الشيطان والشهوات . قال لا والله : ولكن عجلت لهم الدنيا وأخرت الآخرة ، ولو عاينوا ، ما عدلوا وما ميلوا » وأرسل الرسول ﷺ معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن ، ليعلموا الناس القرآن ، ثم ذهب في خلافة عمر إلى حمص . وصلى في كنيسة يوحنا ، ثم خرج فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، وقد رأى امتلاك المسلمين للشام وكنائسها .

وأدرك عمر ببصيرته النفاذة أن قارئ القرآن الكبير ينبغي ، أن يذهب واليا على البصرة ، فذهب إليها . فبين لهم في أول خطبة له مهمته الأولى وهي إقراءهم القرآن ، ثم تعليمهم سنة الرسول ، وبأبى بعدها تنظيف الطرق وحكم المدينة . ثم أخذ يقعد في المسجد ، لتعليم المسلمين القرآن . وكان أبو رجاء العطاردي القارئ المشهور يذكره . ويقول « فكأنني أنظر إليه بين بردين أبيضين يقرئني القرآن ، ومنه أخذت هذه السورة - إقرأ باسم ربك الذي خلق - فكانت أول سورة أنزلت على محمد ﷺ » ثم حين تحلى عن الولاية ، لم يكن يدخل عليه إلا القراء ، وكان عددهم قريبا من ثلثائة وكان يخشى عليهم قسوة القلب ، وتقلباته . وهذا ما حدث فعلاً فيما بعد : وكان يعظهم أشد الوعظ .

وخشى عليهم فتنة الدنيا ، فكان يلبس العباء - كما قلت أحياناً ، « ويتوخى ذلك اليوم الحار الشديد الحر الذي يكاد ينسلخ فيه الإنسان ، فيصومه » ويذكرهم بأيامه مع رسول الله ، وهم مجهدون من العطش والجوع ، ويستعرض أحداث غزوة ذي الرقاع ، حين نقيت أقدامهم ، وتساقطت أظافرهم ، فكانوا يلفون على أرجلهم الحرق والرقاع .

ورأى الدنيا أحزاناً وفتنة . فكان يتأفف ويقول « ما ينتظر من الدنيا ، إلا كلالاً محزوناً وفتنة تنتظر » وحذرهم سطوة المال « إنما أهلك من كان قبلكم هذا الدينار وهذا الدرهم ، وهما مهلكاكم » وذكرهم بتقلبات القلب ، وخشى عليهم نزواته . ثم طلب منهم البكاء ، والتباكى . وحدثهم عن النار في يوم البعث ، وأخذ يشتد في ذكرها . وقد أصبح البكاء بعده ، والخوف من النار وأهوالها ، سمة العبادة أو الزهد البصري . ونسب إليه أبو نعيم وابن الجوزي مصطلح « كشف الغطاء ^(١) » . وحقاً إن هذا المصطلح قرآني ، ولكنه استخدم - فيما بعد - استخداماً آخر .

وفي خلال إمارته على البصرة ، احترقت أخصاصها وبنى في وسطها حص ، لم يحترق ، فأخبر أبو موسى بالأمر ، فبعث إلى صاحب الحص ، فأتى به وسأله أبو موسى : يا شيخ - ما بال خصك لم

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٢٦٣ ، وابن الجوزي : صفة الصفة ج ١ ص ٢٢٥ .

يحترق فقال : إني أقسمت على ربي ألا يحرقه . فقال أبو موسى : أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : يكون في أمي رجال طلس رؤوسهم ، دنس ثيابهم ، لو أقسموا على الله لأبرههم (١) . . وأخيراً . . . لقد آمن أيضاً قراء الكوفة أو العدد الكبير منهم بأبي موسى الأشعري . وحين رفعت المصاحف في صفيين رأى هؤلاء القراء ، أنه لا بد من التحكيم ، وأصروا على أن يكون مثل علي ، شيخهم الكبير البصري . وقد انقلب هؤلاء القراء - خوارج - فيما بعد . ومات أبو موسى الأشعري سنة اثنتين وخمسين من الهجرة ، وقيل إنه دفن بالثوبة على بعد ميلين من الكوفة . ونعود إلى البصرة فنقول : لقد زرع أبو موسى الأشعري الفرس فيها ونما ، وترك ملامح حياته على كثير من الحياة الروحية فيها .

٢ - عامر بن عبد قيس - الثورة الروحية الأولى في البصرة

ولكن البصرة التي تتقبل كل أنماط الحياة ، ما تلبث أن تقدم نوعاً من الزهد أو العبادة الإيجابية ، التي تحاول الخروج على الخليفة ، وأن تربط الزهد بالسياسة العامة للدولة . ما تلبث البصرة أن تخرج من أراضيها عابداً من أكبر عباد المسلمين . هو عامر بن عبد قيس البصري . أما اسمه الكامل - فهو عامر بن عبد الله بن عبد قيس ، نشأ في الجاهلية في هذه القبيلة الغامضة اليمنية - قبيلة عبد قيس ، والتي ستصل بسلطان الفارسي ، وتشيع تشيعاً غالياً فيما بعد ، ويستشرى الغنوص فيها . ولم يدرك عامر ابن عبد قيس رسول الله ، ثم حضر إلى البصرة مع قبيلته وسكن بها بحيث أطلق عليه أبو عمرو البصري . وفي البصرة قرأ القرآن على أبي موسى الأشعري . ثم انتهى الزهد إليه بحيث يقول صاحب أسد الغابة « كان أعبد أهل زمانه وأشدهم اجتهاداً (٢) » . ويضعه ابن الجوزي وأبو نعيم على رأس مجموعة التابعين من العباد (٣) . ويطلق عليه كعب الأحبار ؛ حين يراه « هذا راهب هذه الأمة » (٤) وذكر صاحب الحلية عامر بن عبد قيس « أول من عرف بالنسك واشتهر من عباد التابعين بالبصرة » وأنه قدمه على عباد الكوفيين لتقدم البصرة على الكوفة ، إذ بنيت قبل الكوفة بأربع سنين ، وكذلك لأن أهل البصرة أشهر بالنسك والعبادة وأقدم من الكوفيين ، فعامر بن عبد قيس ، هو أول بل منشي تلك الطائفة من

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ج ١ ص ٨٨ .

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٨٨ .

(٣) أبو نعيم الحلية ج ٢ ص ٨٧ وابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٤) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٢٧ .

الناسك التي ظهرت بعد وفاة عمر بن الخطاب ، وقد سبق أن تكلمنا عنها من قبل ، وقلنا إنهم طائفة كانوا يمشون في سميت ووقار ، رأينا اعتراض الشفاء بنت عبد الله على هذه الطائفة ، ومقارنتها لهم بعمر بن الخطاب الناسك القديم . ويرى صاحب الحلية أن عامر بن عبد قيس قد تخرج على أبي موسى الأشعري في النسك والتعب ، ومنه تلقن القرآن وأخذ الطريقة . ولكن يبدو أن رواية أبي نعيم ليست دقيقة ، فما لاشك فيه أن عامر بن عبد قيس أخذ القرآن عن أبي موسى ، ولكن ما لبث أن اختلف معه في الطريقة اختلافاً تاماً إذ أن أبا نعيم ما يلبث أن يقول لنا إن أبا موسى الأشعري أرسل إلى عامر بن عبد قيس - يقول له « أما بعد ، فإني عهدتك على أمر ، وبلغني أنك تغيرت ، فاتق الله وعد^(١) » . من الواضح إذن أن الطريق قد اختلفت بالإثنين ، واختط عامر بن عبد قيس مسلكاً في الحياة يختلف أشد الاختلاف عن مسلك صديقه وأستاذه أبي موسى الأشعري - كما سنرى فيما بعد . ولم يكتب عامر بن عبد قيس بالأخذ عن أبي موسى الأشعري ، بل أخذ عن غيره من الصحابة ، ويذكر ابن الجوزي أن « عامراً أدرك الصدر الأول ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لكنه اشتغل بالعبادة عن الرواية^(٢) » .

ويبدو أنه كره التحديث حين رأى « أصحاب الأهواء » في مسجد البصرة يكثرون اللغظ والتخليط ، وكان له مجلس في المسجد فتركه ، فذهب إليه أصحابه يسألونه ، فأجابهم بمحدث مرفوع إلى النبي ﷺ واعترف في ديباجة الحديث بأنه صاحب أصحاب رسول الله ، وأنهم حدثوه بمحدث رسول الله « رأيت نقرأ من أصحاب النبي ﷺ وصحبتهم ، فحدثونا أن أصنى الناس إيماناً يوم القيامة أشدهم محاسبة لنفسه في الدنيا ، وأن أشد الناس فرحاً في الدنيا ، أكثرهم حزناً يوم القيامة ، وأن أكثر الناس ضحكاً في الدنيا ، أكثرهم بكاء يوم القيامة . وحدثونا « أن الله تعالى فرض فرائض وسن سنناً ، وحد حدوداً ، فمن عمل بفرائض الله وسنته ، ركب حدوده ، ثم تاب ، استقبل الزلازل والأهوال ، ثم يدخل الجنة ، ومن عمل بفرائض الله وسنته ، وركب حدوده ثم مات مصراً على ذلك ، لقي الله مسلماً إن شاء غفر له ، وإن شاء ، عذبه^(٣) » . فعامر إذن قابل عدداً من الصحابة ، وأخذ عنهم الحديث ، ولكنه لم يكثر ، فقد اتجه نحو القرآن ، ونحو العبادة ، بل استهلك فيها استهلاكاً كاملاً .

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٩٥ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٣٥ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٩٣ .

وسنحاول الآن تخطيط حياته - طبقاً لما لدينا من مصادر. ينتمي عامر بن عبد قيس - كما رأينا - إلى هذه القبيلة اليمنية. أتى إلى البصرة في مطلع شبابه ، ثم لزم أبا موسى الأشعري وانضم إلى حلقة القراء . وهو نفسه - يذكر هذا - بعد أن أخرج من البصرة إلى الشام ، حين سعى في أمره إلى معاوية ، وتقول عليه البصريون الأفاويل . ويبدو أنه كان يرنو إلى البصرة دائماً ، فلما طلب منه بعض أصحابه أن ينحدر إليها ثانية قال : « والله إني للبلد الذي هاجرت إليه ، وتعلمت به القرآن ، ولكنه رحلة هوى ^(١) » .

ومن ثم ، أصبح القارئ اليمنى معلم القرآن وجليسه ، يعلمه في مسجد البصرة . فيقضى النهار كله في المسجد - وهو صائم - يقرئ الناس القرآن . وكان يذكر للرجال والنساء « تغزوا عن الدنيا بالقرآن ، فإنه من لم يتعز بالقرآن ، عن الدنيا تقطعت نفسه حشرات ^(٢) » .
ثم بدأت عبادته من صيام دائم وقيام بالليل ثم لجأ للسباحة ويذكر ابن الجوزي وصاحب الخلية أنه قابل العابد حممة ، وأخذ عامر وحممة يتعبدان أربعين ليلة . وقد ذكر ابن الجوزي أن حممة كان من صحابة رسول المتعبدين ، وأنه كان حبشياً ، وأنه خرج غازياً في خلافة عمر ، ثم عاش يتعبد حتى مات بمجوار أصيبان . وها هو يظهر في حياة عامر بن عبد قيس ، كما سيظهر في حياة العابد هرم بن جيان ^(٣) .

ثم يترامى إلى أسماع عامر بن عبد قيس أن الخليفة عثمان قد غير وبدل ، وأنه لا يسير على سنة الشيخين ، فطلبه إلى المدينة ، وتناقش الرجلان في الحدة ، كما حدث تماماً بين عثمان وبين أبي ذر ثم عاد عامر بن عبد قيس إلى البصرة « وأخذ يطعن على الأئمة » أي على الحكام ^(٤) ، ويبدو أن عامر بن عبد قيس اختلف مع والي البصرة بعد عودته من المدينة ، وبخاصة بعد عزل عثمان لأستاذه أبي موسى الأشعري ، وقد ذكرت المصادر قيام عامر بن عبد قيس بإجارة ذمي حاول والي الكوفة ظلمه ، فسعى به مرة أخرى إلى عثمان بأنه « لا يأكل اللحم ، ولا ينكح النساء ، وأنه يطعن على الأئمة ولا يشهد الجمعة ^(٥) » أما الامتناع عن أكل اللحم وعن الزواج ، فكان يعني أنه اتصل بترعة هندية .

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٩٢/٩١ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ... ج ٣ ص ١٣٣ وأبو نعيم الخلية ج ٢ ص ٩٣ .

(٣) ابن الجوزي صفة ج ١ ، ٣ ص ١٢٨-١٢٩ وأبو نعيم : الخلية ج ٢ ص ٨٩ .

(٤) ابن الجوزي . صفة الصفوة ج ١ ص ٣١٢ .

(٥) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٨٩/٨٨ .

ونستتج من هذا أن البصرة عرفت الأديان الهندية منذ ذلك الوقت ، كذلك الامتناع عن الزواج ، فهي محاولة أيضاً لوصله إما بنسك الهنود من البوذيين أو ببعض رهبان المسيحيين . أما اتهامه « بالظعن على الأئمة ، وعدم شهود الجماعة » فكان يعنى لدى عثمان أن عامر بن عبد قيس لجأ إلى المقاومة الإيجابية التي قام بها أبو ذر من قبل ، ولم يرد أبداً أن الرجلين قد اتصلا ببعضهما أو أن أبا ذر قد أثر في عامر . ورأى عثمان أن ينفيه إلى الشام ، وخرج إخوان عامر يشيعونه ، وخرج الرجل من بلده غير غاضب ، بل كان يدعو لمن وشى به وكذب عليه ويقول « اللهم أكثر ماله وولده وأصح جسمه وأطل عمره (١) » .

وقدم عامر على معاوية ، وأخذ معاوية يحقق في الأمر ، فنتين له كذب ما ادعى على الرجل ، فلم يكن عامر نباتياً على الإطلاق ، ولم يمتنع عن الزواج ، فأرسل إلى والي البصرة أن يرعى الرجل وأن يعمل على إرضائه ولكن عامر بن عبد قيس رفض العودة إلى البصرة . وقال « لا أرجع إلى بلد أستحل أهله مني ما استحلوا » فكان يقيم في سواحل الشام حتى توفي ببيت المقدس ودفن بها (٢) . كان لعامر بن عبد قيس من الأهمية في تاريخ الحياة الروحية المكان الكبير . كان من العباد الأبياء ولذلك شغل به الجاحظ وأورد الكثير من أقواله في كتابه البيان والتبيين وفي البخلاء . بل جعله في البيان والتبيين على رأس نسك البصرة وزهادها (٣) . ونظفر أيضاً من الجاحظ بأن عامر بن عبد قيس ، لم ينف وحده من البصرة ، بل نفي معه أيضاً زاهد آخر من كبار زهادها هو مذعور بن طفيل . ويورد لنا الجاحظ أيضاً قول عامر - متشوقاً للعراق « ما أسى من العراق إلا على ثلاث « ظمأ الهواجر ، وتجاوب المؤذنين ، وإخوان لي منهم الأسود بن كلثوم (٤) » .

أما آراء عامر بن عبد قيس في النسك والزهد وطريقة عبادته ، فنلخصها فيما يأتي : انبثق زهد عامر بن عبد قيس من حلقة قراء البصرة ، وهي الحلقة التي راعها حياة البصرة المترفة - كما قلنا - وإقبال البصريين على لذائذ الحياة بكل ما فيها من معانٍ حسية ، وإهمالهم للحقيقة الآخرة . وكان يقول « وجدت أمر الدنيا تصير إلى أربع : المال والنساء والنوم والأكل ، فلاحاجة لي في المال والنساء ، فأما النوم والأكل - فأيم الله - لن استطعت ، لأضرن بها (٥) » . وبدأ زهد عامر « بالخوف من النار»

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٩١ .

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٨٨-٨٩ .

(٣) الجاحظ . البيان والتبيين ج ١ ص ٢٣٣ و ج ٣ ص ١١٦ وأنظر المقدسي : البدء ج ١ ص ٧٦ .

(٤) الجاحظ : نفس المصداق ج ٣ ص ٩٣ .

(٥) أبو نعيم : الحلية ج ٣ ص ٩١ . وابن الجوزي . صفة الصفوة ج ٣ ص ١٣٩ .

وكان هذا الخوف من التارسمة العبادة في العالم الإسلامي كله . ودعاه هذا إلى التعبد الدائم ، خوفاً من النار وطعماً في الجنة « ما رأيت مثل الجنة ، نام طالبها ، وما رأيت مثل النار نام هاربها » فكان إذا جاء النهار قال « أذهب حر النار النوم » « فما ينام حتى يمسي » وإذا جاء الليل قال « من خاف أدلج ، وعند الصباح ، يحمد القوم السرى » وهنا بدأت تنطلق منه أعمق أوصاف الروح وأخذ ينشد :

قد طارت الصحف في الأيدي منتشرة فيها السرائر والجبار مطلع
فكيف سهوك والأنباء واقعة عما قليل ولا تدري بما تقع
إما الجنان وعيش لا انقضاء له أم الجحيم فلا تبني ولا تدع
تهوى بسكانها طوراً وترفعه إذا رجوا مخرجاً من غمها قمعوا
لينفع العلم قبل الموت عالمه قد سال قوم بها الرجعي ، فما رجعوا

وأقبلت مرحلة البكاء ، وقد وصف الجاحظ البكاء فقال : هو أعظم ما تقرب به العابدون ، واسترحم به الخائفون . . . وضرب عامر بن عبد قيس بيده على عينه فقال : جامدة شاخصة لا تندی ^(١) وإذا أصبح الصباح عليه نادى الله في دلال « يارب العاؤون في حوائجهم ، وغدوت إليك أسألك المغفرة » ^(٢) ولكنه لا يزال في مرحلة الخوف من الله ، وقد تعالى عن الخوف من الناس « من خاف الله أخاف منه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء » ^(٣) ثم تملكه الحب ، وقد وصل إلى أوج نضجه الروحي ، فيعلن « أحببت الله عزوجل ، حبا سهل على كل مصيبة ، ورضائي في كل قضية ، فما أبالي مع حبي إياه ، ما أصبحت عليه ، وما أمسيت » ^(٤) .

وقد وضعه السراج الطوسي في حال القرب : شهود العبد بقلبه قرب الله منه ، فتقرب إلى الله بطاعته ، وجمع همه بين يدي الله بدوام ذكره في علانيته وسره ، ويرى السراج الطوسي أن عامر بن عبد قيس ممن تحقق بحال القرب . حين قال « ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله تعالى أقرب إليه مني » ^(٥) بل وضعه السراج أيضاً في حال اليقين ونسب إليه « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » أي أنه

(١) الجاحظ : البخله ٥-٦ .

(٢) ابن الأثير أسد الغابة ج ٣ ص ٨٨-٨٩ .

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص : أبو نعم . الحلية ج ٢ - ص ٩٠/٨٩ وابن الجوزي . صفة الصفة .

(٤) السراج الطوسي : اللع ص ٨٤ .

(٥) نفس المصدر ص ١٠٢ .

لا يزداد يقينا حين ينكشف الغطاء ، ويكون في حال المعاينة ، لما آمن به قبلا من الغيب . ويعلق السراج « وهذا كلام غلبات ووجد وتحقيق ^(١) .

وبهذا كان عامرين عبد قيس أول محب في الإسلام ، وقد أحب الله وثاق إليه ، إلى الحياة الخالدة بجواره .

وأخيراً كان لعامر بن عبد قيس أثر كبير في مدارس الزهد من بعده . بقي أصحابه في البصرة يتعدون ، بل إننا نرى الحسن البصري يروى عنه ، ويقص لتلاميذه أخباره ، فيذكر أمر الضيعة في الصلاة ، وأن عامرين عبد قيس سئل عنها فقال : أتجدونه : قالوا نعم : قال : والله لأن تختلف الأسمنة في جوف أحب إلى من أن يكون هذا مني في صلاتي ^(٢) . كما ذكر الحسن أيضا أنه صنق قلبه من شعبة الولد والأهل ^(٣) ومدحه الحسن . كما أثر في الزاهدين مالك بن دينار وقتادة وكانا يتبعان أخباره . . .

ولم يتبته الباحثون إلى أثره في الشام . فقد عاش الفترة الأخيرة من حياته فيها ، وتكلم ويروى أبو سليمان الداراني شيخ مدرسة الشام عنه كثيراً ^(٤) .

وفي أواخر حياته - اختلط الحب بالأحزان ، والعشق بالدلال ، فيسأل عن سر خلقه ، وسر عذابه ويخاطب الله ، في ألفاظ لم يعرفها عصره ، صارخاً ، طالباً أن يهب له نفسه . . .

في الدنيا الغموم والأحزان ، وفي الآخرة النار والحساب ، فأين الراحة والفرح . إلهي خلقتني ولم تؤامرني في خلقي ، وأسكتني بلايا الدنيا ثم قلت لي : استمسك . فكيف استمسك إن لم تمسكني . إلهي : إنك لتعلم أن لو كانت لي الدنيا بمجد أغيرها ، ثم سألتنيها ، لجعلتها لك ، فهب لي نفسي ^(٥) .

ومرض عامر بن عبد قيس . ودخل عليه أصحابه فبكى : فقيل له أتجزع من الموت وتبكي ، فقال : مالي لا أبكي ، ومن أحق مني بذلك ، والله ما أبكي جزعا من الموت ولا حرصا على دنياكم ، ولكني أبكي على ظمأ الهواجر ، وقيام ليل الشتاء ^(٦) وأخذ يحضّر ، فقال : لئلهذا المصراع ، قال يعمل

(١) نفس المصدر ص ١٠٢ .

(٢) أبو نعم : الحلية ج ٢ ص ٩٢ .

(٣) ابن الجوزي : صفة الصفوة ج ٢ ص ١٣١ .

(٤) ابن الجوزي : صفة الصفوة ج ٣ ص ١٣٣/١٣٢ .

(٥) أبو نعم : الحلية ج ٢ ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٦) ابن الجوزي : صفة الصفوة ج ٣ ص ١٢٧ .

العاملون : اللهم إني أستغفرك من تقصيري وتفريطي ، وأتوب إليك من جميع ذنوبي : لا إله إلا أنت (١) .

٣- هرم بن حيان - عاطفة الخوف :

ولم تكن البصرة بخالية من عابد آخر من كبار العابدين ، ينطق أيضاً بحقيقة الزهد البصري في هذا العصر ، فقد ظهر فيها أيضاً ومعاصراً لعامر بن عبد قيس : وهو هرم بن حيان العبدى . وقد سكنت المصادر عن ذكر أية علاقة بين هرم وبين عامر بن عبد قيس . بالرغم من أن كليهما من كبار التابعين ، وعاش الاثنان في البصرة وفي وقت معاصر ، واتصل الاثنان بالصحابي القديم حممة . كما سزى بعد قليل . ونسب للاثنين نفس العبارات الزهدية ، وروى سيد عباد البصرة ، الحسن البصري عن الاثنين .

ونحن لا نعرف الكثير عن حياة هرم بن حيان . قيل إنه ممن اختطوا البصرة لعمر بن الخطاب وروى عن عدد من الصحابة ، ثم استعمله عمر على بعض السرايا ، وأميراً على بعض نواحي البصرة ولكنه زهد الإمارة والولاية وأرسل إلى عمر بن الخطاب يستعفيه .

ويبدو أيضاً أنه كان من القراء ، وتنسب إليه المصادر العلم والفقہ كما تنسب إليه الكرامات (٢) . بدأت عبادته وتزهدته بالقراءة ، ثم سافر في رحلة إلى الخليفة عمر مع عبد الله بن عامر ، وكان والياً لعمر ، ثم لمعاوية فيما بعد . وكان الاثنان على رواحلها ، وأعناق الرواحل تحالج الشجر . ونظر هرم بن حيان إلى شجر منها . وقال لزميله « أتحب أنك شجرة من هذه الشجر . فقال ابن عامر : لا والله . إنا لئرجو من رحمة الله ما هو أوسع من ذلك . فقال هرم بن حيان : لكنني والله لوددت أني شجرة من هذه الشجر ، قد أكلتني هذه الراحلة ، ثم قذفتني بعراً ، ولم أكابد الحساب يوم القيامة ، إما إلى الجنة وإما إلى النار . ويحك يا ابن عامر إني أخاف الداهية الكبرى « فشاهد القيامة أمامه نارها وجنتها ، تسيطر عليه في كل ما يفعل . والخوف من النار يلون حياته ، فلما استعمله عمر بن الخطاب ، وكان زاهداً في الولاية ، ظن أن قومه سيأتونه ، فأوقد ناراً كبيرة بينه وبينهم ، فجاء قومه يسلمون عليه من بعيد . فطلب منهم أن يدنوا إليه ، قالوا : والله ما نستطيع أن ندنوا منك ، لقد حال النار بيننا وبينك . فقال : وأنتم تريدون أن تلقوني في النار أعظم منها ، في نار جهنم (٣) .

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٨٩ .

(٢) السراج : اللع ص ٣٩٧ .

(٣) أبو نعم : حلية ج ٢ ص ١٢٠ .

ورفض الرجل الإمارة كما قلنا ، سواء على المدينة أو في المغازي وكان يخرج في الليل ينادي :
عجبت من الجنة ، كيف ينام طلبها ، وعجبت من النار ، كيف ينام هاربها ، «أفأمن أهل القرى أن
يأتيمهم بأسنا بيئاتاً ، وهم نائمون » ثم يقرأ والعصر وأهلاكم التكاثر . ثم يعود إلى بيته ، فإذا رأى أهله
يكثر الضحك ، أمرهم بالصلاة (١) .

ثم اتصل هرم بن حيان بالصحابي الزاهد حممة . وكانا يقضيان الليالي سوياً ، وحممة يبكي
ويقول « ذكرت ليلة صبيحتها تبعثر القبور وتناثر نجوم السماء ، فتخرج من فيها .
وكثيراً ما كان الصاحبان ، يصطحبان أحياناً بالنهار ، فيأتيان سوق الرميحان فيسألان الله الجنة ،
ويدعوان ، ثم يذهبان إلى سوق الحدادين ، فيتعوذان من النار ثم يفترقان إلى بيتيهما (٢) .
وحين نزل بهم بن حيان الموت ، طلب أصحابه منه أن يوصي . فقال : قد صدقتني نفسي في
الحياة ، ومالي شيء أوصي به . ولكني أوصيكم بخواتيم سورة التحل . وأخذ يقرأها « ادع إلى سبيل
ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . إلى الذين هم محسنون » ومات في يوم قانظ ، فأتت صحابة أظلت
سريره أي نعشه ثم أمطرت قبره ، وأثبتت العشب والأزهار والرياحين حول قبره (٣) .

٤ - الأحنف بن قيس ومقام المحاسبة ومقام الصبر .

وظهرت « المعتزلة بالبصرة » . وهي أيضاً تعبير عن روحها العبادية وطبيعتها الهادئة ولم تكن المعتزلة
أول الأمر عقلية ، بل كانت عبادية زهدت التراجع والفتنة بين العثمانية والعلوية ، ثم بين العلوية والأموية
ورأت نجات الأمة في العبادة ولم ترض البصرة أولاً ، أن تتابع شيخها الكبير : الأحنف بن قيس كبير
تميم . ولكنها عادت ثانية بعد حرب الجمل إلى اعتزاله .

وكان الأحنف بن قيس من عباد البصرة ، وقد صاحب عمر وعلياً وأباذر وأسند الحديث عنهم .
ثم أتى البصرة ، ووضع للبصرين مقام المحاسبة أو مقام النفس اللوامة ، وسيظهر هذا المقام بوضوح
لدى الحسن البصري . كان الأحنف يقضى الليل في الصلاة والدعاء ، ثم يقبل على المصباح ، فيضع
إصبعه فيه ، لكي يجترق بنيرانه ، ثم يقول « حس . . . يا أحنف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ،
ما حملك على ما صنعت يوم كذا . . . » (٤)

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١١٩-١٢٢ وابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٣٧ ، ١٣٩ .

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٢ ص ٥٣ .

(٣) أبو نعيم الحلية ج ١ ص ١٢٢ .

(٤) ابن الجوزي : صفة ج ٢ ص ١٢٤ .

وسنرى الحسن البصرى فيما بعد يقول . « إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه ، دائماً يقول : ما أردت بهذا ؟ لم فعلت هذا ؟ كان غير هذا أولى أو نحو هذا من الكلام »^(١) ولا شك أن الحسن البصرى قد تأثر خطى الأحنف ابن قيس ، وهو يضع أسس محاسبة النفس ، أو يصور عمل النفس اللوامة في حياة الإنسان . وقد روى الحسن مراراً عن الأحنف . ومن أهم ما رواه عنه أيضاً قول الأحنف « والله ما سمعت كلمة إلا طأطأت لها رأسى لما هو أعظم منها » .

ولقد رسم الأحنف أيضاً لأهل البصرة طريق الصبر أو مقامه ، فقد ذهب إليه ابن أخيه يشكو وجع ضرسه ، فقال له الأحنف « لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة ، ما ذكرتها لأحد »^(٢) . وقد أثرت دعوته الاعتزالية إلى الزهد في أعماق أسرته ، فنرى ابن أخيه إمام بن قتادة التميمي يصرخ في قومه ، وقد رأى شعيرات من الشعر الأبيض تتخلل ذقنه . . . يا بني تميم : إني قد كنت وهبت لكم شيبتي ، فهبوا لي شيبتي . ألا أراي حمير الحاجات ، وهذا الموت يقرب مني » ثم قال انفضى العامة . ثم يصفه ابن الجوزي فيقول « فاعتزل يؤذن لقومه ، ويعبد ربه ، ولم يغش سلطاناً حتى مات » ويقرر ابن الجوزي أيضاً أن إياساً قد أسند عن قيس بن عباد وعن أبي بن كعب . ولكنه تشاغل بالتعبد عن الرواية وقد كان طريق الاعتزال العبادي سمة لكثير من الصحابة في الحجاز والشام والعراق . اختاروه بدلاً عن عرض الدنيا الذي اختلف عليه الفريقان . بل إننا نرى في أعماق جيش علي ومن أقرب الناس إليه من كان يفضل هذا الطريق الاعتزالي العبادي فهذا الحسن بن علي يود لو أن أباه اعتزل الفتنة وذهب بعيداً ، متعبداً ، فإن أراداه المسلمون بعد أتوه ، وإن لم يرد ، تركوه في عبادته . وكذلك محمد ابن الحنفية وهو يحمل الراية يرده « إنها والله الفتنة العمياء المظلمة » وأخيراً نأتى أرباب الأمة ، على نفسه ، وهو سيد العباد والزهاد ، تعتلج نفسه مرارة ، أن وضع يده في الأمر .

ولكن البصرة تميزت عن جميع البلاد أن اعتزلها العبادي ، كان فعلاً ، كان الاعتزال يتصف بالهدوء العميق . ونحن نعلم أن هذا الاعتزال أدى إلى قيام القدرين أولاً ، ثم المعتزلة العقلية ثانياً . وقد لاحظ الباحثون أن المعتزلة العقليين كانوا عباداً وزهاداً . حقاً : إنهم لم يمثلوا - فيما بعد : طريق الروح ، وإنما مثلوا طريق العقل . ولكن حدث كل هذا في بيئة البصرة العبادية الزاهدة .

٥ - أبو العالية الرياحي : ضأن الله :

وعادت فكرة « ضأن الله » و« سائبة الله » تظهر ثانية في البصرة وهي الفكرة التي ستصبح

(١) ابن القيم : كتاب الروح ص ٢٥٥ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٢٥ .

التصوف - كما قلنا من قبل - بصيغة حاسمة . وكأن البصرة تريد أن تعطى - وهي ما زالت بعد - في حياتها الأولى - للتصوف كل ملامحه .

فتدخل امرأة من بنى رياح إلى المسجد وفي يدها - رفيع أبو العالية لتعلن - والإمام على المنبر - أنها أعتقتة وتصيح « اللهم - ادخره عندك ذخيرة » اشهدوا يا أهل المسجد ، أنه سائبة لله » ثم خرجت . ولم يرها أبو العالية فيما بعد : ويمضى أبو العالية الرياحى - في طرقات البصرة - ضأن الله . المهدي إلى حضرته . إسماعيل « ذبيح إبراهيم » وإنما نتساءل : من هو أبو العالية الرياحى - هل هو رياحى - أى من قبيلة بنى رياح - أم هو مولى بالولاء ، أم هو فارسي الأصل . ليس من إجابة على هذه الأسئلة سوى أن امرأة من بنى رياح أعتقتة (١) « ولكنه هو يذكر أنه تعلم الكتابة والقرآن ولم يشعر به أهله ولا رأتى في ثوبه مداد قط . وبدلنا هذا على أنه عاش بين أهله ، وبخاصة أنه يذكر مرة أنه تعلم القرآن وقرأه بعد النبي ﷺ (٢) بعشر سنين . ومرة أنه قرأه قبل مقتل عثمان بخمس عشرة سنة . فهل كان أبو العالية عربياً بالولاء ، ونشأ في بنى رياح ، وتفصح ، وتعلم الكتابة والقرآن » . وتجمع المصادر على أن أبا العالية روى عن أبى بكر الصديق وعمر وعلى وأبى بن كعب وأبى موسى الأشعري وأبى هريرة وابن عباس في جماعة من الصحابة ، إلا أنه أرسل الحديث عن بعض هؤلاء (٣) ويبدو أنه كان يتلمس الحديث ، فيسير إلى رجاله ، ويذكر هو نفسه أنه كان يرحل للرجل مسيرة أيام ، فأول ما يتفقد من أمر الرجل ، صلاته . فإن وجد الرجل يقيم صلاته . ويتمها . ويمسها . أقام وسمع منه . أما إن وجدته يضيعها ، رجع ولم يسمع منه وهو يقول « هو لغير الصلاة أضيع (٤) » ثم عرف « قصص الأنبياء » السابقين ، وهو من التراث الذى كان ينتشر في أعقاب عهد عمر بن الخطاب ، وكان يعمل على نشره المستسلمة من اليهود ككعب الأحبار وغيره وكون هذا التراث طائفة « القصاص » . وكذلك نرى أبا العالية يذكر قولاً ينسبه لموسى وهو « قدسوا الله عز وجل بأصوات حسنة ، فإنه أسمع لها » ويذكر عن عيسى أنه « ما ترك حين رفع ، إلا مدرعة صوف ، وخفى راع ، وقذافة يقذف بها الطير » (٥) . وليس معنى هذا أنه تأثر بالإسرائيليات أو بالمسيحيات ، بل إننا نجد شخصية عربية يذكرها هو تحت اسم عبد الكريم أبى أمية يزوره وعليه ثياب صوف . فيهاه ويقول له

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٣٥ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٢٢٢ ، وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٣٦ .

(٤) أبو نعيم : حلية ، ج ص ٢٢ .

(٥) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٢٢١ .

« هذا زى الرهبان ، إن المسلمين إذا تراوروا تجملوا » فقد عرف الرجل إذا الرهبانية . وأنها طريق في الحياة غير طريق المسلمين ، وعرف أن رمز هذه الرهبة هو ليس الصوف ، فهى عنه^(١) وهذا يدل تمام الدلالة على أن الصوفية لا تنسب إلى هذه اللبسة ، التى عرفت فى وقت مبكر فى تاريخ الإسلام بأنها لباس الرهبان ، هذا مع العلم بأن أبا العالية كان سائبة الله فى البصرة ، يمدد صورة صوفة أو صورة ذبيح إبراهيم . ولكننا نرى أيضا خلال صورة عبد الكريم أبى أمية هذا أن بعض المسلمين لبس « الصوف » دلالة على الرهبة ، فى هذا الوقت المبكر . ولكن التابعين من العباد رفضوا لبسه كمظهر أو كرم للعبادة - وقامت فتنة عثمان . فنأى أبو العالية عنها وجل أقواله فى النهى عن الفتنة^(٢) وما أحدثته من أهواء متفرقة ، أورت المسلمين العداوة والبغضاء^(٣) . فكان أبو العالية أيضا من المعتزلة الزهاد الأوائل . وكان يصرخ فى الناس بعنف طالبا منهم تعلم « القرآن » . وكان يقضى أوقاته فى قراءته . وكان يرى أن العمل الحقيقى لا يتبغى أن يتجه إلا لله ، وإلا وكل الله بالإنسان غيره . ثم وضع أبو العالية مبدأ الطهارة القلبية فكان يفسر التطهير بأنه ليس التطهر بالماء ، ولكن التطهر من الذنب . ومرض أبو العالية مرض الموت ، فكان يقول « إن أحبه إلى ، أحبه إلى الله عز وجل » وتوفى فى شوال سنة تسعين^(٤) . وبعد : فإن على الباحث فى تاريخ الحياة الروحية فى البصرة أن يلتبس فى بحثه لحياة أبى العالية وأخباره صورتين هامتين « فى تاريخ التصوف الصورة الأولى : هى صورته هو كسائبة الله » أو بمعنى أدق أنه « صورة » « صوفة » الجاهلى ، حارس الكعبة وسادتها ، والصورة الثانية هى صورة عبد الكريم أبى أمية « فى لباس الصوف » الرهبانى ، يلبسه دلالة على زهده ، ولكن فى لبسه تحاكاة لرهبان النصارى .

٦ - صلة بن أشيم : وتصور الغوث وفكرة الموت :

والبصرة ما تلبث أن نعطينا فكرة التعبد فى الجبانات ، واللجوء إلى المقابر وما أكثر ما اختلف المسلمون بعد على زياره القبور ، بل التعبد فيها . وسرى عبد الله بن مسعود فى الكوفة ، وفى هذا العصر المبكر ينهى أصحابه عن التعبد فى الجبانات ، ويأمرهم بالعودة إلى منازلهم . أما فى البصرة ، فكان أبو الصهباء صلة بن أشيم العدوى من أوائل من اخطوا هذا الطريق . وقد

(١) نفس المصدر : ج ٢ ص ٢١٧ .

(٢) نفس المصدر : ج ٢ ص ٢١٧-٢١٩ .

(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٢٩ .

(٤) أبو نعم : الخلية ج ٢ ص ٢٤٢ وابن الجوزى : صفة ج ٢ ص ١٤٢ .

كان صلة بن أشيم من كبار التابعين ، لقي عدة من الصحابة ، تعلم منهم واقتبس وأسند الحديث عن ابن عباس بالذات . وقد كان للرجل من الأهمية الكبرى في عصره . بحيث نسب للنبي ﷺ حديثاً يقول فيه « يكون في أمي رجل يقال له صلة : يدخل الجنة بشفاعته كذا وكذا »^(١) . وقد أعتبره معاصروه رجلاً الشفاعة الكبير ورجل الدعاء ، وهو ما يعرف عند الصوفية فيما بعد « بالغوث » وكانت دعوات الرجل دائماً لأتباعه في « الترغيب فيما يبق ، والترهيد فيما يفنى » وكان لصلة حلقة كبيرة تجتمع حوله ، وبخاصة أنه اتخذ موقفاً سياسياً معادياً للحرورية أى الخوارج ، وكان ينهى الناس عنهم !^(٢) وقد كان صلة بن أشيم عنواناً على قبيلة بني عدى الزاهدة . لقد اشتهرت بعده بالعبادة والزهد ، وخرج منها مجموعة من العباد والعبادات ، وإلى هذه القبيلة أو هذا الفخذ تنتمي رابعة العدوية المشهورة ، وقد قتل صلة بن أشيم شهيداً في أوائل إمرة الحجاج على العراق^(٣) .

كانت دعوة صلة بن أشيم العبادية هي أيضاً الخوف من العذاب ، والاستعداد لآخرة . ولذلك لجأ إلى الجبانات يتعبد بها هو وحلقة من رجاله ، وكان يدعو إلى التعبد في الجبانات في طرقات البصرة وأطرافها^(٤) . وكان شعار صلة بن أشيم الآية « إنك ميت وإنهم ميتون »^(٥) . وكان يرى بهذا أن الإنسان نعى في ميلاده ، فلم يكن الموت عنده حديثاً عجباً ، أو حدثاً نازلاً ، بل كان أمر حتمياً ، مقررأ في تاريخ الإنسان . وقد كان يذكر لمعاذة العدوية « ليكن شعارك الموت ، فإنك لا تبالين على يسر أصبحت من الدنيا أم على عمر » .

وقد تزوج صلة بن أشيم بمعاذة ، وتلمذت عليه^(٦) ، فكانت من كبار العابدات في البصرة ، وكان لمعاذة - كما كان لصلة بن أشيم - أثر في الحسن البصرى ومدرسته .

وقد كان صلة بن أشيم على صلوات ببعض الرهبان ، وكان ينزل في بعض الأديرة ، وقد أوردت المصادر بعض كرامات صلة^(٧) ، وكان منها : وصول طعام رباتي إليه ، دونخلة ملأى برطب ، ثم دخل على راهب في أحد الأديرة ، وعلم الراهب بالأمر ، فاستطعمه بعض الرطبات ، ثم مر على

(١) أبو نعيم : الخلية ج ٢ ص ٢٤١ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٤٢ .

(٤) أبو نعيم : الخلية ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٥) ابن الجوزي . صفة ج ٣ ص ١٤١ .

(٦) أبو نعيم : الخلية ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٧) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٤١ والمراج . اللع ص ٣٩٧ .

الراهب بعد ذلك ، فإذا نخل حسان جمال فسأل الراهب فقال له : إنهن لمن ربطاتك التي أطعمتني .

ولا ينبغي أن نبالغ في هذه الصلوات بين الزهاد أو العباد الأوائل وبين الرهبان . فكثيراً ما أضنى خيال المؤرخين الكثير في هذا الصدد . واخترعوا هذه القصص لإثبات سمو العباد من المسلمين على الرهبان من المسيحيين . ومحاولة لإثبات أن بعض زهاد المسلمين في استطاعتهم القيام بمعجزات المسيح - نزول المائدة من السماء والعشاء الرباني ، ولكن المستشرقين تلقفوا هذه القصص المخترعة عن مقابلة العباد للرهبان ونزولهم في الأديرة ، وخیل إليهم أنهم وصلوا إلى نتيجة صحيحة حاسمة وهي أن العباد تأثروا بالرهبان ، وأنهم حاكوهم في ملبسهم ومشربهم ومطعمهم ، بل في نظرتهم الفلسفية أو على الأقل التأملية ، وليس في هذا نوع من الحق على الإطلاق . فقد كانت العبادة في هذه المرحلة إسلامية بحتة ، وأخذت العبادة واتخذ الزهد في هذه المرحلة أساساً هاماً : هو الجهاد . ولقد استشهد صلة بن أشيم وهو محارب في المغازي ، كما استشهد ابنه أمام عينيه . والحروب والمغازي ليست سبيل الرهبان ، ولكنها كانت فرضاً على عباد المسلمين ثم زهادهم ثم صوفيتهم . ولا جرم بعد ذلك أن يقال إن هناك نوعاً من التشابه العرضي بين الاثنين .

٧ - الزاهدات البصریات : معاذة بنت عبد الله :

وتعطينا البصرة أيضاً صورة من المصطفيات من العابدات « أو بمعنى أدق نجد فيها الرائدات الأوليات من النساء العابدات والزاهدات . وسرى في بحثنا للكوفة وللمدينة ولغيرهما من البلاد الإسلامية صوراً أخرى من ترهد النساء وعبادتهن . ولكن البصرة كانت أسبق في هذا المضمار ، وكانت عابداتها أعمق روحاً وأكثر تأثيراً . وكانت الأولى من المصطفيات من عابدات البصرة أم الصهباء معاذة بنت عبد الله العدوية وقد ذكرها الجاحظ في البيان والتبيين كواحدة من كبريات الناسكات والزاهدات من أهل البيان ^(١) . وقد زفت معاذة إلى ابن عمها صلة بن أشيم . وكانت ليلة زفافها عبادة « روحية لله » . ولم تكن هذه العبادة - من نوع الرهينة - أو العزوف عن الزواج ، وإنما كانت تصفية روحية ، لحياة زوجية طويلة ، ورباط يتم بكلمة الله . وقد كان لصلة لمعاذة أبناء بعد ذلك . وقد أخذت معاذة عن عائشة الحديث ، ثم أخذت طريق العبادة عن زوجها شاركته في ليالي التعبد الطوال . ويقول أبو السوار العدوي - مشيداً بعبادة بني عدى « بنوعدى أشد أهل هذه البلدة اجتهاداً ، هذا أبو الصهباء لا ينام ليله ولا يفطر نهاره وهذه امرأته معاذة ابنة عبد الله لم ترفع رأسها إلى

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٢٢٢ وج ٢ ص ١١٦ .

السماء أربعين عاماً^(١) . ويروى ابن الجوزي عنها أنها كانت إذا جاء النهار تقول - هذا يومي الذي أموت فيه - فما تنام حتى تمشي وإذا جاء الليل - قالت - هذه ليلى التي أموت فيها فلا تنام حتى تصبح . وكانت تلبس « الثياب الرقاق في البرد حتى يمنعها البرد من النوم . وكانت تجول في الدار وهي تقول « يا نفس : النوم أمامك لو قدمت لطالت رقدتك في القبور على حسرة أوسرور » . وتردد « عجبت لعين تنام وقد عرفت طول الرقاد في ظلم القبور » ويستشهد زوجها وابنها في إحدى المغازي . وتجتمع نساء بني عدى عندها فقالت معاذة : مرحباً : إن كنتن جئتن لهنتني فمرحباً بكن ، وإن كنتن جئتن بغير ذلك ، فارجعن » .

وتحدث رضيعة لها - هي أم الأسود بنت زيد العدوية ، بعد مقتل زوجها وولدها « والله - يابنية - ما محبتي للبقاء في الدنيا للذيد لعيش ولا لروح نسيم ، ولكني والله أحب البقاء لأتقرب إلى ربي عز وجل بالوسائل ، لعله يجمع بيني وبين أبي الصهباء وولده في الجنة » .
وتحدث فناة أخرى أرضعتها فتقول لها « يابنية كوني من لقاء الله عز وجل على حذر ورجاء وإني رأيت الراجي له محققاً بحسن الزلي لديه يوم يلقاه ورأيت الخائف له مؤملاً للأمان يوم يقوم الناس لرب العالمين ... ثم بكيت وغلبها البكاء^(٢) كانت دعوة معاذة إذن إلى العبادة والانقطاع لها ! خوفاً من النار ورجاء في الله بحسن التقرب إليه . كانت تمثل مرحلة بين الخائفين - وهو تعبير يطلق على هؤلاء الذين كانوا في خوف من النار ، واشتهرت به البصرة وبين المحيين الذي تخلصوا من الخوف وأحبوا الله رغبة لا رهبة .

وأخيراً نزل بها مرض الموت ، وأخذت تحتضر ، فبكت ، ثم ضحكت . ولما سئلت عن السبب في بكائها ثم ضحكتها . قالت : أما البكاء الذي رأيتم ، فإني ذكرت مفارقة الصيام والصلاة والذكر ، فكان البكاء لذلك . وأما الذي رأيتم من تبسّمى وضحكى ، فإني نظرت إلى أبي الصهباء ، قد أقبل في صحن الدار ، وعليه حلتان خضراوان - وهو في نفر - والله ما رأيت لهم في الدنيا شيئاً ، فضحكت إليه ... » ثم ماتت . وقد روى عن معاذة عدد من كبار الزهاد والعباد وعلى رأسهم الحسن البصرى وأبو قلابة ويزيد الرشك^(٣) كانت معاذة عابدة ومحبة عبدت الله وأحبته ، كما أطاعت زوجها وأحبته ، بل كانت في شوق عارم لقاؤه ... ويذكر الحسن البصرى : أن معاذة لم توسد فراشاً بعد أبي الصهباء حتى ماتت . وكل هذا يؤكد لنا عظم الخلاف بين العابدات المسلمات والراهبات وبين العابدین المسلمين وبين الرهبان .

(١) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١١-١٥ . (٢) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ١٤ ، ١٥ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ١٢-١٣ .

الفصل الثاني

مدرسة البصرة الثانية

مدرسة الحسن البصرى : الخوف والبكاء :

وهكذا مرت الحياة الروحية في البصرة في مرحلتها الأولى - وقد عرضنا صوراً منها ، وتركنا صوراً^(١) والإطال بنا المقام . وانتقل إلى المرحلة الثانية ، وهي مرحلة تكاد تكون متممة للأولى ، غير أنها تميزت بظهور أول مدرسة رسمية للعبادة في البصرة ، وهي مدرسة الحسن البصرى .

١ - مقدمات مدرسة الحسن البصرى : مطرف بن عبد الله بن الشخير ومدرسته :

ولقد انعكست الأضواء على هذه المدرسة ، واحتل صاحبها الحسن البصرى ، أعظم مكانة في تاريخ الحياة الروحية الإسلامية . وقد أدى هذا إلى إهمال شخصيات ممتازة سبقته بسنين غير طويلة ، بل عاصرته في فترة من حياته وحياة مدرسته . وأهم هذه الشخصيات هي شخصية مطرف بن عبد الله ابن الشخير الحريشى وأخيه يزيد .

ولقد كان مطرف بن عبد الله بن الشخير سلطاناً من سلاطين العابدين ، وزاهداً من أعمق الزاهدين في تاريخ الإسلام ، ولقد أثر في عدد من كبار الصوفية من بعده .

ولد مطرف بن عبد الله بن الشخير لصحابى هو عبد الله بن الشخير . ولقد أسند مطرف عن أبيه ، كما أسند عن عثمان بن عفان وعلى وأبي بن كعب وأبي ذر^(٢) ونزلت الأسرة فيما يبدو - في ماء نسبت إليهم ، فكان يقال لها « الشخير » وكانت على بعد ثلاث ليال من البصرة^(٣) وحفظ مطرف وأخوه القرآن . وتتلماذا فيما بعد على عامر بن عبد قيس وكانا يحضران حلقاته^(٤) ثم أصبحا من القراء .

(١) تركت صورة أبي رجاء عمران بن ملحان العطارى ، وهو أيضاً عابد من كبار العباد والقراء وتلميذ لأبي موسى الأشعري .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٢ ص ١٤٩ .

(٣) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٩٠ هامش ١ .

(٤) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٣٤ .

ويصف مطرف القراء ، حين يقرأ الآية « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية: يرجون تجارة لن تبور » ويقول : هذه آية القراء (١) . ويذهب الجاحظ إلى أن مطرف بن عبد الله كان أيضاً من القصاص . وقد انتشر القصاص في هذه المرحلة من حياة البصرة ، وكان معاصر مطرف الشاب « أبو الحسن البصرى » قاصاً أيضاً (٢) .

وكان مطرف بن عبد الله من أعيان قومه وكبارهم ، وكان يلبس أول أمره الملابس الفاخرة ظاهراً أمام الناس ، ولكن حين يعود إلى بيته ، ينقلب عابداً من كبار العباد يقول ابن الجوزى « كان مطرف يلبس البرانس ، ويلبس المطارف ، ويركب الخيل ، ويتشى السلطان ، غير أنك كنت إذا أفضيت إليه ، أفضيت إلى قرة عين (٣) . ولما مات ابنه عبد الله بن مطرف ، خرج إلى قومه في أجمل ثياب ، وهو متعطر . فعاتبه قومه بل غضبوا « يموت عبد الله ثم تخرج في ثياب مثل هذه مدهناً » قال « فأستكين لها . وقد وعدنى ربي تبارك وتعالى ثلاث خصال ، كل خصلة منها أحب إلى من الدنيا كلها . قال الله عز وجل (الذين إذا أصابتهم مصيبة ، قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون) فأستكين لها بعد هذا (٤) ولكن ما يلبث الرجل أن يعود نهائياً إلى الغليظ من الثياب ، وأخذ يعتبر هذا الملبس الحسن ، قربة إلى الله ، فلبس الجبة وأخذ العصا (٥) بل لبس « الصوف » . بحيث يذكر أحمد بن أبي الخوارى عن شيخ مدرسة الشام الكبير أبى سليمان الداراني أن « مطرف بن عبد الله لبس الصوف وجلس مع المساكين . فقيل له في ذلك . فقال - إن أبى كان جباراً ، فأحبيت أن أتواضع لربي عز وجل ، لعله يخفف عن أبى تجره (٦) ويتين لنا - من هذا النص - أن الصوف كان لباس المساكين ، وكان الأغنياء يلبسونه تعبداً - للتعرب من الله ، ولكن لم يمنع هذا - كما قلت من قبل - من أن بعض العباد كرهوا لبسه لأنه لباس الرهبان . ونلاحظ أن مطرف بن عبد الله كان من ثروة البادية ، وكان عامة البدو يلبسونه ، أما هو فكان يلبس المطارف والغالى من الثياب ، فرأى - حين أعمت العبادة في قلبه ، أن يعود إلى لبس المساكين ، ولا نرى في حياته ولا في في كلماته ظلاً من ظلال الرهينة المسيحية . بل كان يعود إلى الإسلام الأول ، إسلام العبادة . وتأمل قصر الحياة « لا تنظروا إلى خفض عيشهم ولين ثيابهم ولكن انظروا إلى سرعة طعنهم وسوء منقلبهم (٧) » .

(٥) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٢٠٩ .

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٢٠٣ .

(٦) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٠٠ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٢٣٤ .

(٧) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ٩٠ .

(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٣٥ .

(٤) نفس المصدر : ج ٣ ص ١٤٦ .

كان مطرف بن عبد الله - مثال العابدين القرآني ، يشغل ليله بالقرآن ؛ يقول في أثر له من أجمل الآثار يصف تعبه الليلي :

إني لأستلقي من الليل على فراشي فأتدبر القرآن ، وأعرض عملي على أهل الجنة ، فإذا أعماهم شديدة .

كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . يبيتون لربهم سجداً وقياماً أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقياماً .

فلا أراني منهم .

فأعرض نفسي على هذه الآية « ما سلككم في سقر » فأرى القوم مكذبين .

وأمر بهذه الآية « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » .

فأرجو أن أكون أنا وأنتم - يا إخوتاه منهم (١) . كان الرجل إذن يعيش متنقلاً في أعماقه بين مشاهد الجنة ، ومشاهد النار ، وكان يأمل في رحمة الله ، أكثر من خوفه من عقابه . فكان يردد

« يا إخوتاه : اجتهدوا في العمل ، فإن يكن الأمر - كما نرجو ، كانت لنا درجات في الجنة ، وإن يكن الأمر شديداً ، كما نخاف ونحاذر . لم نقل : ربنا أرجعنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل . نقول -

قد عملنا « فلم ينفعنا ذلك » وأقواله كثيرة طافحة بهذا المعنى . بل كان يذهب دلالاً على الله - إلى أن يطلب وهو على جبل عرفة ألا يرد الله الناس - من أجله هو « اللهم لا ترد الجميع من أجلتي » (٢) .

وكان يفتش في أعماق النفس . ويتمنى لو كان له نفسان ، تراقب الواحدة الأخرى ، حتى لا يتسرب

في الشر ؛ ولكن إنما لي نفس واحدة ما أدري على ما تهجم ؟ : خير أو شر . ولكنه أخذ يدعو إلى أخلاقية باطنية ، حددها في مراحل ثلاث : صحة النية ، ويستبعضها صلاح العمل ، فينشأ عن

الإثنين صلاح القلب . ودعا إلى ترويض النفس أمام الملاء في كثير من أقواله ودعا مطرف إلى الصبر مع الإبتلاء ، والشكر مع العطاء ولكنه تمنى العافية مع الشكر ، وفضلها عن الإبتلاء مع الصبر . بل يدعو

إلى السكون « لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً ، أحب إلى من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً » ويردد دائماً إن عدم الفعل ، أحب إليه من الفعل (٣) ، ثم محاسبته على هذا الفعل فيما بعد . حالة من السكون

أرادها لنفسه ، ولعشيرته . ولقد فعل هذا لأنه : نأى بعشيرته عن الخروج مع الحورية من الحوارج كما نأى أيضاً عن المجتمعات السرية التي كان يعقدها زهاد الشيعة . فقد دعى إلى اجتماع في أول خائفاه

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ١٩٨ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٤٥ ، ١٤٦ وأبو نعيم الحلية ج ٢ ص ١٩٩ .

(٣) أبو نعيم الحلية ج ٢ ص ٢٠٠ .

للسوفية أنشأه العابد الشيعي زيد بن صوحان . وكان زيد يعظ ويقول : يا عباد الله أكرموا وأجملوا ،
 وإنما وسيلة العباد إلى الله بخصلتين : الخوف والطمع . . ثم نسق المجتمعون كتاباً شيعياً -- على هذا النسق
 « إن الله ربنا . ومحمداً نبينا ، والقرآن إمامنا . ومن كان معنا . كنا وكنا له . ومن خالفنا كانت يدنا عليه
 وكنا وكنا » ثم يضع الكتاب عهداً^(١) يبدو أنه عهد بموالاته الإمام الشيعي أو الإمام ذى الملامح
 الغنوصية ويقال إن صعصعة بن صوحان عبر بعد ذلك عن هذا الإمام الغنوصي حامل الأسماء خليفة
 الله في أرضه متعرفاً عليه في الإمام على ولكن مطرف بن عبد الله يرفض أن يقر هذا العهد .
 ويسأله زيد بن صوحان عن سبب رفضه ، فيجيب مطرف : إن الله قد أخذ على عهداً في
 كتابه ، فلن أحدث عهداً سوى العهد الذي أخذه الله عز وجل على . ومطرف هنا يشير إلى العهد
 الذي أخذه على المؤمنين ، في عالم الذر ، حين كان البشر جميعاً في أصلاب آبائهم ، أو أصلاب أبيهم
 الأول آدم : فقال : أولست بربكم ، قالوا . . . بلى « وهذا هو عهد الله في قرآنه الذي يذكره مطرف
 ابن عبد الله . ولذلك رفض العهد الذي وضعه الكتاب الشيعي السالف الذكر .

وقد نأى مطرف بن عبد الله عن الفتنة ، فتنة عثمان ، ثم فتنة علي ومعاوية . ويذكر قتادة : وكان
 مطرف إذا كانت الفتنة نهى عنها وهرب . وكان الحسن البصري ينهى عنها ولا يبرح . كان مطرف إذن
 ينهى الناس عن الفتنة ويقول لهم « إن الفتنة ليست تهدي الناس ، ولكن إنما تأتي تقارع المؤمن عن
 دينه ، ولأن يقول الله - لم لا قتلت فلاناً ، أحب إلى من أن يقول : لم قتلت فلاناً » كان يقول مطرف
 هذا ، فإذا أقبلت ، ولا مناص ، فرهو . بينما كان الحسن البصري ينتهي عن الفتنة ، ولكنه لا يترك
 مكانه ، يقف في وجه العواصف العاتية التي مر بها العالم الإسلامي موقفاً صلداً . وهذا كان أحد
 الاختلافات الكبرى بين الرجلين . ثم كان الاختلاف الأخير : أنه أنكر القدرية وحاربها ، وكان
 الحسن البصري - قدرياً في فترة من حياته . فكان مطرف يقرر أن الإنسان مجبر جبراً كاملاً . بل ذهب
 إلى أنه كالحجر ، إن جعل الله فيه خيراً ، كان ويستشهد بالآية « ومن لم يجعل الله له نوراً ، فما له من
 نور » وأخذ مطرف يهاجم القدرية فيقول « إن ها هنا أقواماً يزعمون أنهم إن شاءوا دخلوا الجنة ، وإن
 شاءوا دخلوا النار » ثم يقسم مطرف ويقول « أن لا يدخل الجنة عبد أبداً ، إلا عبد شاء الله أن يدخله
 إياها عمداً » وليس للإنسان من خيرة على الإطلاق ، لا في أعماله ولا في خطراته ، فلا يستطيع أن
 يولج في قلبه شيئاً من شر أو خير حتى يكون الله يضعه . وكان يضع المسألة للناس في صورة بسيطة
 عميقة « ليس لأحد أن يصعد فيلقى نفسه من فوق البئر ، ويقول : قدر لي ، ولكن يحذر ويحسد
 ويتقى ، فإن أصابه شيء ، علم أنه لم يصبه إلا ما كتب الله له . ثم يحدد رأيه النهائي في القدر فيقول

« إن الله عز وجل لم يكل الناس إلى القدر، وإليه يعودون ، وإليه يصيرون (١) . وبالرغم من موقف مطرف بن عبد الله الجبيري ، موقف العابد المستسلم لمشئته الله وأمره ، فإنه يؤمن بقدرة العقل ، ويقرر أنه « ما أوتى عبد بعد الإيمان أفضل من العقل » وإن كانت عقول الناس تتفاوت على قدر زمانهم بل إنه ليعجب من عدم تجاوب القلوب مع صرخات الحق ، وعدم إصاحتها للحديث الإلهي الملقى إليها فيقول في زفرة حري « كأن القلوب ليست منا وكان الحديث يعنى به غيرنا (٢) . وقد نسبت الكرامات لمطرف بن عبد الله ، كان يغمى عليه ، فتسطع منه الأنوار . كما نسبت إليه الدعوة المستجابة . وحين قبض الحجاج على مروق العجلى وجسه ، دعا مطرف بعضاً من مرديه - وطلب منهم أن يؤمنوا على دعائه ، ففعلوا . وفي العشاء أمر الحجاج بإطلاق مروق (٣) . وكان مطرف يذهب من البادية كل يوم جمعة إلى المدينة ، وكان يمر بالمقابر ، فيتوقف ويصبيه النعاس . وتذكر الرؤية أنه رأى أهل القبور على أفواه القبور . . . وحادثهم فكانت زيارة القبور والتعبد فيها سنة عند الكثيرين من عباد البصرة . وقد حفظت لنا المصادر أدعية مطرف بن عبد الله ، وهي أدعية حارة تصدر من قلب كبير حقاً . ومن الأمثلة على هذه الأدعية : اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه . وأستغفرك مما جعلته لك على نفسي ، ثم لم أوف به ، وأستغفرك مما زعمت أنني أردت به وجهك فخالط قلبي فيه ما قد علمت . . . إلخ وقد احتفظ لنا الجاحظ في البيان والتبيين بالكثير من مواعظه (٤) .

ومات مطرف بن عبد الله عام ٨٨ هـ . وقد تابع عبادته أخوه أبو العلاء يزيد بن عبد الله بن الشخير . وقد تميز أبو العلاء بمقام الرضا . وحفظت الصوفية بعده بعض كلماته « اللهم رضيت لنفسي ما رضيت لى . وكان يجتمع مع الحسن البصرى في المجالس ، وكان المجلس يتكلم وهو صامت . فلما طلب من يزيد بن عبد الله الكلام . قال : أو هناك أنا . . . (٥) .

كانت صور العبادة في البصرة تتعدد وتنوع قبل ظهور مدرسة الحسن البصرى ، وكانت هذه الصور مقدمات حتمية لظهور هذه المدرسة ، أثرت فيها وعاشت خلال أراتها . ومعظم شخصيات هذا العهد كانت على صلوات بالحسن البصرى نفسه (٦) .

(١) أبو نعيم : الحلية : ج ٢ ص ٢٠١ و ٢٠٢ . (٢) الحلية : ج ٣ ص ١٠٣

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٢٠٦ / ٢١٧ .

(٤) الجاحظ : البيان . ج ٣ ص ١٠٣ ومواقع أخرى متعددة .

(٥) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ١١٢ ، ١١٣ ، وابن الجوزى صفة ج ٣ ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٦) وأهم شخصيات هذا العدد : صفوان بن محرز المازني النخعي وأبو الحلال العتكي الأزدي ووزارة بن أوفى الحرشي وأبو النوار

حسان بن حرث العدوي ، وتخليد بن عبد الله المصري وميمون بن سباه .

إننا نرى صورة العبادة في الأصراب . كان البكاؤون الخائفون يلجأون إلى بعض الأصراب ، يأوون فيها للعبادة ويبكون . وكان عن هؤلاء صفوان بن محرز^(١) وكان يكنى برغيف عيش ، وشربة كوز ماء . ثم يردد بعد أن يفطر عليهما « على الدنيا وأهلها العفاء » وكان إذا تحدث أوقص « يرق القوم وتسيل الدموع ، انتشر القصاص إذن - قبيل ظهور الحسن البصرى ثم بعد ظهوره . وكان من تقاليد هؤلاء القصاص - هجر أهل الأهواء والبدع ، وتلك ستة ساروا عليها جميعاً ، وبالأخص الحسن البصرى فيما بعد في أرجح الأقوال - وكذلك فعل صفوان بن محرز . قد أثر صفوان بن محرز في الحسن البصرى أشد تأثير بحيث كان يقول « لقيت أقواماً كانوا - فيما أحل الله ، أزهذ منكم فيما حرم الله ، وقد لقيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفق أن لا تقبل منهم من سيئاتهم ، ولقد صحبت أقواماً كان أحدهم يأكل على الأرض ، وينام على الأرض ، منهم صفوان بن محرز » .

وتسمع فوق أسطح البصرة وفي الليالي الظلماء أصوات العباد تملو تذكر الناس بفناء دنياهم - فيتسلق عابدين مشهور - هو زرارة بن ربيعة الأزدي المشهور بأبي الحلال العتكي فوق غرفة من غرف مسكنه ويشرف على كل ركن من الأركان الأربعة وينادى « ... يا فلان ... يا فلان ... » ثم يقول « هل تحس منهم أحداً أو تسمع لهم ركراً ... ويناجي الله فيقول : اللهم لا تسليني القرآن »^(٢) . وتظهر « فكرة الابتلاء » في البصرة . وستعرف بعد في تاريخ العباد . فيثلى أبو السوار العدوى ، ويضرب بالسياط . ويتذكره الحسن البصرى فيقول « والله لا تذهب أسواطه » وبقيت ذكرى أبي السوار في قلب أحمد بن حنبل - فيما بعد . فعين امتحن ابن حنبل ، وضرب بالسياط ، ذكره أحد أصدقائه « أما ، ترضى أن تكون عند الله بمنزلة أبي السوار العدوى » فاسترجع ابن حنبل . وكان أبو السوار العدوى ذا طبيعة حادة ، فها هو يجتمع بالعبادة معادة العدوية بالمسجد ، ويجادها في حضورها إليه ويطلب منها أن تمتنع عن الحضور ، وأن تستقر في بيتها . إن حضورها إلى المسجد - وهي العابدة المتبتلة بفتن الرجال . فترد عليه معادة بجدة : ولم تنظر . اجعل في عينك تراباً ولا تنظر . فيجيب العابدة الكبير : إني والله ما أستطيع إلا أن أنظر . إنه يقر لها حقيقة الطبيعة الإنسانية ، وتفهم معادة ثم تعتذر . وتقول « إذا كنت في البيت شغلني الصبيان ؛ وإذا كنت في المسجد كان أنشط لي » فيجيب أبو السوار : النشاط أخاف عليك^(٣) وكان أبو السوار يسير في زى المساكين ، ويتحمل أذى الناس فلا يجيب . وكان يقرأ « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه » ويعلق على هذا فيقول : هما نشرتان

(١) كان من التابعين ، أسند الحديث عن عبد الله بن عمرو وأبي موسى الأشعري وعمران بن حصين وحكيم بن حزام : أبو نعيم :

الحلية ج ٢ ، ص ٣١١ - ٢١٧ وابن الجوزي ج ٣ ص ١٤٩ - ١٥٧ - والجوزي البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٩٠ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ج ٥ ص ١٥١ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٢٥٠ / ٢٥١ .

وطية - أما ما حبيت يا ابن آدم فصحيفتك منشورة ، فأصل فيها ما شئت . فإذا مت طويت ، ثم إذا بعثت نشرت « اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » (١) .

كما تظهر فكرة الصعق في البصرة . وقد رويت عن بعض من الصحابة ، وأنكرها البعض ، وقد مثل هذا الحال من الصعق في هذه الفترة زرار بن أوفى الحرشي . وكان من كبار القصاص (٢) . وكان يحدث دائماً عن « الحال المرتحل » وهو حال السائح في القرآن ، يضرب في أوله حتى يبلغ آخره ، وفي آخره حتى يبلغ أوله . حال المتقلب في الكتاب ، يعيش في مقاماته وأحواله - بلغة التصوف فيما بعد . وقد بلغ الحال المرتحل بززار بن أوفى مداه ، حين كان يقرأ « فإذا نقر في الناقر » ، فشهو . ومات (٣) .

وأخيراً ... نرى فكرة الحب الإلهي تظهر وضاءة في البصرة وعلى يد رجل من بني عبد قيس . إذ يعلن خلود بن عبد الله البصري « يا إخوتاه - هل منكم من أحد لا يحب أن يلقى حبيبه ، ألا فأحبوا ربكم ، وسيروا إليه سيراً كريماً » (٤) .

٢ - مدرسة الحسن البصري :

انتهت مراحل العبادة المتعددة وصورها المتنوعة إلى مدرسة الحسن البصري . واحتل شيخ المدرسة في تاريخ الفكر الإسلامي مكانة لم يدها من سبقوه أو من عاصروه من مفكري الإسلام وباهت البصرة به على مدن العالم الإسلامي كله ، وادعته الفرق المختلفة والاتجاهات المتباينة لنفسها . فصدر عنه مختلف الآراء ومتناقض الأفكار ومتباين النظريات أوجعلته الفرق ينطق بها . وجمع فيه كل شيء . بحيث يمكننا أن نقول إن أسطورة الحسن البصري كانت أضخم أسطورة في العالم الإسلامي في القرنين الثالث والرابع الهجريين .

ولسنا نحاول هنا توضيح الجوانب المختلفة لآراء الرجل ، وتبين ما ينسب له وما لا ينسب ، وما يصح له وما لا يصح . إنما نريد فقط أن نعرض لمكانته في تاريخ الحياة الروحية في الإسلام ، والانطلاقة الروحية التي انبثقت منه ومن مدرسته . وقد قلت إن الحسن البصري كان عابداً ، بل انتهى

(١) أسند أبو السوار العدوي عن علي بن أبي طالب وعمران بن حصين وغيرهما . انظر أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٢٤٩ - ٢٥١ وكذلك ابن الجوزي : صفة . . ج ٣ ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٢) أسند زرار بن أوفى الحرشي عن جماعة من الصحابة منهم أبو هريرة وعمران بن حصين وابن عباس وتوفى سنة ٩٣ هـ .

(٣) أبو نعيم : ج ١ ص ١٥٩ - ١٦٠ وابن الجوزي ج ٣ ص ١٥١ .

(٤) أسند خلود بن عبد الله المصري عن أبي الدرداء - أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ١٣٢ - ١٣١ - وابن الجوزي ج ١

إليه كل صور العبادة قبله ، فأحياها في نفسه وفي رجاله . وقد دعا هذا الصوفية من بعده إلى اعتباره مرحلة اتصال في السلاسل الصوفية التي وضع فيها - بين الرسول وصحابته ، وبين أجيال المسلمين . وقد تتبع العالم الكبير الدكتور إحسان عباس السلاسل الصوفية التي احتل الحسن البصري مكانة فيها ، وانتهى إلى أنه أصبح للحسن البصري في شجرة التصوف ثلاثة فروع على الأقل . الفرع الأول : الرسول عليه الصلاة والسلام - حذيفة - الحسن - المحاسبي . ومع ما في هذه السلسلة من خلل ، فإنه من المتعذر تماماً أن يكون الحسن أخذ عن حذيفة علم الأسرار ، فإن الدكتور إحسان عباس يرى أن هذا الفرع أوثق الفروع وأصحها نسباً من حيث المبدأ . فالحسن يشبه حذيفة ، وقد تأثر المحاسبي بالحسن أشد تأثير . ويتبين هذا في ارتباط أفكار الحسن والمحاسبي . وقد سرت هذه السلسلة إلى شمال أفريقيا . فإن ليو الأفرنجي يذكر أنه قابل في بعض مدن شمال أفريقيا فرقة صوفية أخلاقية يعلن رجالها أن إمامهم الأول هو الحسن البصري ، ومن بعده الخارث المحاسبي .

أما الفرع الثاني - فيتكون - من النبي وعلى والحسن البصري وحبيب وداود الطائي ومعروف الكرخي . ويبدو الحسن هنا وامضة بين الرسول وابن عمه من ناحية ، وبين تلامذة الحسن - حبيب العجمي ومن بعده من ناحية أخرى .

ويرى الدكتور إحسان عباس أن وصل الصوفية الحسن بعلى يلحظ منه محاولة الصوفية نسبة مذهبهم إلى باب مدينة العلم (١) . ويستخلص منه الدكتور كامل الشيبني صلة الزهد بالتشيع وصدوره عنه (٢) . وفي الحق إن الحسن البصري كان يعلم يقيناً أن على بن أبي طالب هو رباني الأمة وأنه سيد عباد المسلمين . وأن طريقته هو في العبادة تشبه طريقة على . ولكن لا عن تشيع ، كان الحسن البصري أبعد الناس عن التشيع لعلى أو عن التشيع ضده . لقد أحب الجميع وتولى الجميع ، ولكن زهد على وعبادته كانا يجذبان إلى ابن عم الرسول قلوب العباد والزهاد . وهذا ما فعله الحسن البصري . أما الفرع الثالث . فيتكون من الرسول - وأنس بن مالك والحسن ، وفرقد السبخي ومعروف الكرخي والسري السقطي ، فالجنيد فالخلدي (٣) .

ويتبين لنا من هذا أهمية الحسن البصري في تاريخ الزهد والتصوف ، أو بمعنى أدق تتبين لنا أهمية الأسطورة . كان للحسن البصري في القرنين الثالث والرابع الهجريين صورة تختلف تماماً عن صورة العابد البصري القديم . إننا نرى - وكما لاحظ الدكتور إحسان عباس بحق - أنه لما سئل الخلاج في

(١) الدكتور إحسان عباس : الحسن البصري ص ١٠ .

(٢) الدكتور كامل الشيبني : الصلة ج ١ ص ٣١٦ .

(٣) الدكتور إحسان عباس : الحسن البصري ١٠ / ١١ .

أثناء محاكمته في بغداد - من أين استمد نظريته في الحجج بالهمة - أنجاب بأنه أخذها من كتاب الإخلاص للحسن البصرى ، فصاح القاضي في وجهه كذبت يا حلال الدم . قد سمعناه بمكة وليس فيه هذا .

وهذا يدل على الروح الأسطورية التي لاحقت الرجل ، والكتب ذات النزعات المتعارضة التي نسبت إليه . لقد نسب إليه الخير والقدر ، ونسب إليه التشيع والتسنن ، فلا عجب أن ينسب إليه الحلول والحجج بالهمة وأن يتعلق بأذياله الحلاج ، كما سيتعلق بأذياله العدد العديد من الناس . ولقد أوصلوه بحذيفة بن اليمان ، وأنه تلقى منه الأسرار ، وهذا محال . كما أوصلوه برابعة العدوية ، واصطنعوا بينها الأحاديث . ولم يحدث هذا فقط . ولكن لا يقدح هذا في الصورة العارمة المليئة الحقيقية للحسن البصرى .

إن أبرز ما في ميلاد الحسن البصرى ، أنه لم يولد عربياً بل ولد (عام ٢١ هـ) في المدينة من أب فارسي - في الأرجح ، أسرى ميسان حين استولى العرب عليها ، وكان والده نصرانياً ، ثم أسلم ، وتسمى باسم يسار وتزوج من أمة أيضاً بالمدينة واسمها خيرة . ولما ولد لها الحسن أعتقا . وكانت أمه محدثة وقاصة ، وقد أثرت في حياة ابنها أكبر تأثير وشهد الحسن الثورة على عثمان ثم الأحداث السياسية التي مرت بالمدينة ، ثم انتقلت أسرته إلى البصرة ، وكانت الأحداث تتلاحق وتلم الفرقة بالمسلمين . ولست في حاجة هنا أن أعرض لموقف الحسن البصرى من حوادث السياسة الإسلامية في هذا الوقت وأثرها في مبادئه وفي زهده وفي ميقات حياته . لقد تكفل الدكتور إحسان عباس كما قلت - في كتابه العبقري بالتحدث عن كل هذا تحليلاً وتركيباً . إن النتيجة الحتمية لهذه الدراسة أن عبادة الحسن البصرى انعكست فيها كل أحداث الحياة في العالم الإسلامي ، ثم صبغها هو بصبغته الخاصة ، ولم تكن هذه الصبغة ببعيدة عن روح العبادة في البصرة ، كانت حظاً مشتركاً بينهم جميعاً . ولكن الحسن البصرى أضفى عليها من روحه هو الشيء الكثير .

كان الحسن البصرى معاصراً لعدد كبير من الصحابة ، أرسل الحديث عن بعضهم - وسمع من بعضهم ، وأثر فيه من بينهم عبد الله بن عباس ، فقد جذبته ابن عباس إليه بمنهج التفسير الذي اختطه ، كما استمع إلى قصصه ، وهي ما يعرف بالإسرائيليات ، أخبار السابقين من الأمم ، ومن ثم دخلت في تراث الحسن البصرى نفسه وفي كلامه . ثم تتلمذ الحسن البصرى على مجموعة من عباد البصرة الكبار ، وبخاصة عامر بن عبد قيس ، وصلة بن أشيم وصفوان بن محرز ، أو بمعنى آخر اندرج الحسن البصرى شيئاً فشيئاً في طائفة القراء . وأصبح - بعد مضي الجيل الكبير من التابعين ومن كانوا - أسن منه إلى حد ما - أقول أصبح الحسن البصرى شيخ القراء . ونراهم يلجأون إليه في أثناء ثورة ابن

الأشعث يستفتونه في الخروج . فيأبى عليهم . ثم نراه بعد ذلك ينهاهم - وهم وقوف على باب أمير البصرة عمر بن هبيرة - ينتظرون الإذن بالدخول عليه ، فيقول « ما يجلسكم هاهنا . تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء . أما والله ما مجالستهم بمجالسة الأبرار . تفرقوا - فرق الله بين أرواحكم وأجسادكم . لقد لقحتم نعالكم ، وشمرتم ثيابكم ، وجززتم شعوركم . فضحتم القراء فضحككم الله . أما - والله - لو زهدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم . لكنكم رغبتم فيما عندهم . فزهدوا فيما عندكم . أبعد الله من أبعد (١) » . هذا الزجر لا يمكن أن يصدر إلا عن رجل تصدر إمامة القراء وأصبح سيدهم . وقد قرر المتأخرون من مؤرخي الصوفية أن الحسن البصري كان من أوائل من تنبه إلى أخذ التصوف من الصوف وأنه كان لباس العباد من الصحابة . فينسبون إليه أنه قال « والله لقد أدركت سبعين بديراً أكثر لباسهم الصوف » بل إنه رأى فيهم مجازين الصوفية « ولورأيتموهم قلت : مجازين . ولورأوا خياركم لقالوا : ما هؤلاء من خلاق . ولورأوا شراركم لقالوا : ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب » (٢) ثم يضع الصوفية على لسانه : أنه يصف عيسى فيقول إن إدامه الجوع وشعاره الخوف ولباسه الصوف ، كما أنه يصف النبي سليمان بأنه كان إذا جته الليل « لبس المسوح وغسل اليد إلى العتق وبات باكياً حتى يصبح ، يأكل الخشن من الطعام ويلبس الشعر من الثياب » (٣) بل إن السراج الطوسي يذهب إلى أن الحسن البصري قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم وقد روى عنه أنه قال : رأيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه . وقال : معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي (٤) .

كانت الغاية من كل هذا وضع الحسن البصري في نسق التصوف العام ، وأنه كان سابق المتصوفة ومقدمهم ، فهو - في نظر متأخري الصوفية - أول من لبس الصوف ، وأنه استن هذه السنة ، متابِعاً ، لعباد الصحابة . بل إنه يتشبه بعيسى وسليمان - ثم إنه أول من لبس الخرقه ، ألبسه إياها على ، ثم موضعه في السلاسل الصوفية ، المشد ، بين الرسول والصحابة ، وبين بقية رجال الصوفية . ولم يكن هذا صحيحاً . فلم يكن الحسن البصري أول من لبس الصوف لبسه غيره وكانوا فعلاً يعرفون باسم أصحاب الصوف ، وكان منهم عبد الكريم أبو أسية ، وكان زهاد المسلمين الكبار ينهونهم عن لبس الصوف ، لأن فيه تشبهاً برهبان النصارى . ولا شك أن الحسن استمع إلى كل هذا . ولم نجد

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٥١ ، وابن الجوزي : ج ٣ ص ١٥٨ ، ١٦٥ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ١٣٤ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٣٧ .

(٤) السراج الطوسي : اللع ص ٤٢ .

الحسن يسمى هؤلاء بأسماء المتصوفة أو الصوفية بل الأرجح أنه كان يسمى أصحاب الصوف أو الزهاد عامة الذين يلبسون الحشن من الثياب بأصحاب الأكسية . بل إنه يخاطب تلميذه فرقد السبخي : ويقول له : مالك ، مالك يا فريقد . أتري أن لك فضلاً على إخوانك بكسيك هذا . لقد بلغني أن عامة أهل النار : أصحاب الأكسية (١) . أما أنه ذكر تعبيراً صوفياً ، وأنه قابل صوفياً في الطواف ، فهي مسألة تحتاج إلى بحث أعمق شامل في صوفة هل هي صوفة القديمة ، فرداً من أفراد هذه القبيلة التي عرفت في الجاهلية بالعبادة والترهد ولم يلبس على الحسن الحرقه ، ولم يكن بين الاثنين علاقة باطنية أو علاقة تلميذ بأستاذه - كان الحسن «عشائياً» معتدلاً ، أحب عثمان وأحب علياً ، يعرف لعثمان عظيم بلائه في الإسلام ، وشراءه لبئر رومة ، وتجهيزه لجيش العسرة ، ويقربه لعثمان دعتة وحيأؤه ، ويعرف لعل عبادته ، وقربه من الله ورسوله ، بحيث كان على الصحابي الوحيد الذي دعاه الحسن برباني هذه الأمة ، ولكن لم نقرأ أبداً أن الاثنين قد تقابلا في جلسات روحية أو عبادية ، أو استمع الحسن لعل استماعاً خاصاً . قيل إن علياً استمع إلى قصصه في مسجد البصرة ، فركه يقص ، بينما أخرج غيره من القصص ويشك المؤرخون في هذا ، فلم يكن الحسن في هذا الوقت في سن توهله للقصص أو لتصدر حلقة في المسجد . وحين هاجر يسار من المدينة ، اتجه إلى البصرة - العمانية ، ولم يذهب إلى الكوفة - الشيعية . بل إن البيهقي يذكر أن الحسن البصري تقلد سيفه وذهب ليحارب مع أم المؤمنين عائشة - في واقعة الجمل ، ولكن الأحنف بن قيس رده عنها قال له : والله ما قتلت مع رسول الله ﷺ المشركين ، فكيف تقاتل معها المؤمنين (٢) . وقد لاحظ الدكتور إحسان عباس بحق أن هذه الرواية - وإن كانت خطأ من الناحية التاريخية ، لأن الحسن أيام الجمل كان لا يزال في المدينة - إلا أنها تمثل اتجاه الحسن البصري العام - وهو اعتزال الفتنة . فلم يرض الحسن البصري عن عائشة - وهي في غيابها - تفرق كلمة المسلمين ، كما أنه لم يرض عن «شيعه علي» تقتل عثمان أولاً ، ثم تنشب الحرب الضارية بين المسلمين . ولكن الحسن البصري - في وسط كل هذه الأحداث - أحب علياً سيد العابدين بلا منازع .

وأخيراً - لا نجد اتصالاً بين الحسن البصري (٣) وبين الحلقة الصوفية الغنوصية في البصرة - وهي حلقة زيد بن صوحان - كانت هذه الحلقة الغنوصية الغامضة ، والتي لم تكشف وثائقها بعد - كانت هذه الحلقة قد تكونت ، وقد رأينا وصف مطرف بن عبد الله بن الشخير لها وكيف انبثقت فيها فكرة الإمامة الكبرى ، أو الخلافة الكبرى ، خلافة آدم لله ، ثم خلافة علي له ، والمعهد الأول ، والمعهد الثاني -

(٣) الدكتور إحسان عباس : الحسن البصري ص ٢٦ - ٢٧ .

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٥٦ .

(٢) البيهقي : المحاسن والمساوي ص ٤٩ .

وقد أنشأ زيد بن صوحان أول بيت صوفي ، أو بالمعنى الاصطلاحي - أول خانقاه للصوفية . ولجأ إلى هذا البيت عباد البصرة الفقراء ، يتشاغلون فيه بالعبادة و يقيمون حلقات الذكر وجعل زيد بن صوحان من أهله من يقومون بأمر هؤلاء في طعامهم ومشربهم (١) ولم يكن هذا طريق الحسن البصرى . لقد أعده أهله من قبل وفي بيوت المدينة المهادنة ، ليكون قارئاً ، والقراءة كانت تعنى في هذا الوقت حفظ القرآن وسماع الحديث ، ومعرفة الأفضية - أى الفقه - ثم العبادة والانقطاع لها . ثم حين أتى البصرة ، ورأى مشيخة العباد من حلقة القراءة ينحون منحى العبادة والتسك ، ولجّه أيضاً ، ونشأ القصص ، أو انتشر القصص وكان على معرفة بأخبار السابقين من الأنبياء ، فأصبح قاصاً واجتمعت فيه كل علوم عصره واتجاهاته ، وتولى القضاء لفترة . أما أنه استحدث التصوف فهذا بما لا يثبتته النقد العلمى للنصوص . وإن كل ما يمكن أن ينسب للحسن البصرى في نطاق المصطلح هو أنه ذكر مصطلح الزهد ، والفقيه الزاهد فقد سئل الحسن عن شيء يقول الفقهاء فيه كذا كذا ، فقال : وهل رأيت فقيهاً بعينك ، إنما الفقيه الزاهد في الدنيا البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه عز وجل (٢) وذكر السراج الطوسى أيضاً أن الحسن قد سئل : أكثر الناس تعلم الأدب فما أنفعها عاجلاً ، وأوصلها أجلاً . قال : التفقه في الدين ، فإنه يصرف إليه قلوب المتعلمين ، والزهد في الدنيا فإنه يقربك من رب العالمين ، والمعرفة بما لله عليك ، يحويها كمال الإيمان (٣) إذا صح عليك أن هذين النصين للحسن البصرى ، فيكون هو أول من أطلق كلمة الزهد وكلمة الزاهد بالمعنى العبادى ، وإن كان في الإمكان - من ناحية نقدية داخلية - تحقيق صحة نسبة النص الأول له ، فإن النص الثانى يحوى تعديداً لمراحل التصوف - الفقه ، ثم الزهد ، ثم المعرفة - تعديداً لم يعرفه الحسن البصرى ولم يعرفه عصره .

قصارى القول في الحسن البصرى إنه كان عابداً من عباد المسلمين ، تكلم في البصرة بكلمات رهيبة عن الجنة والنار ، فكان من طائفة الخائفين التى اشتهرت بها البصرة ، بل كان أكبر رجل فيها . ذلك أن الآخرين من قبله أرادوا فقط تأديب نفوسهم وتأديب حلقة صغيرة معينة تلتف حولهم ، بينما نصب الحسن البصرى نفسه لإنقاذ المجتمع البصرى مما فيه من ضلال وبالتالي المجتمع الإسلامى كله ، وحمل على عاتقه مسئولية الناس جميعاً ، فكان ذو العامة السوداء بين أخصاص البصرة ، كما كان يدعوه الحجاج ، سيد البصرة جميعاً ، بل حاكمها الحقيقى حتى وفاته عام (١١٠ هـ) .

(١) ابن عساکر : التهذيب ٦٨ ص ١٣ .

(٢) أبو نعیم : حلیة ج ٢ ص ١٤٧ .

(٣) السراج الطوسى : الملع ص ١٩٤ .

أما آراء الحسن البصرى فى إيجاز فهى :

أراد الحسن البصرى أن يتلمس « المثل الأعلى » ورأى هذا المثل فى الماضى : فى عصر الأجداد ، عصر الصحابة . هؤلاء الذين « كانت الدنيا أهون على أحدهم من تراب قدميه » هؤلاء الذين يؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة « ولقد رأيت أقواماً يبس أحدهم وما يجد عنده إلا قوتاً . فيقول : لا أجعل هذا كله فى بطنى ، لأجعلن بعضه لله عز وجل ، فيتصدق ببعضه ، وإن كان أخرج مما يتصدق به عليه » (١) بل لعل أبلغ وصف لهؤلاء الصالحين من الصحابة أنهم « أزموا الكد والعير ، وألطفوا التفكير ، وصبروا على مدة الأجل القصير ، عن متاع الغرور الذى إلى الفناء يصير ، ونظروا إلى عاقبة مرارتها ولم ينظروا إلى عاجلة حلاوتها . ثم يقرر أن هؤلاء الصحابة أزموا أنفسهم الصبر ، أزلوها من أنفسهم بمتزلة الميتة التى لا يعل الشيع منها إلا فى حال الضرورة إليها ، فأكلوا منها بقدر ما يرد النفس وبقى الروح « رأوا الدنيا نتنا وجيفة ، فعافوها ، وزهدوا تنها ، وكم كانوا يعجبون من الأكل منها شبعاً ، والمتلذذ منها أشراً : وكانوا يتساءلون فى أنفسهم عن رواد الدنيا : أما ترى هؤلاء لا يخافون من الأكل ، أما يجردون ريح التن . عجباً إن قوماً استعجلوا الصبر ، ولم يجدوا عن الدنيا مناصاً ، فلم يدخل أنوفهم الريح المتنتة ، لأنهم نشأوا فى ريح الإرهاب التن ، فلم يجدوا تنته ، ولم يعرفوا أذاه ، فعاشوا فيه ما عاشوا ، ولم يجدوا عنه بديلاً (٢) .

ونظر إلى نفسه وقارن بينه وبين هؤلاء فصاح : لقد أدركت أقواماً ما أنا عندهم إلا لص (٣) . وأخذ يقارن بين هذا المثل الأعلى الإنسانى وبين قومه فبكى أسفاً على الناس وعلى نفسه « والله ما من الناس رجل أدرك القرن الأول أصبح بين ظهرانيكم ، إلا أصبح مغموماً وأمسى مغموماً » فساد الحزن حياته وكونه « ما يسع المؤمن فى دينه إلا الحزن » . وأكثر البكاء كسابقيه من العباد ، وجعله سنة للناس جميعاً .

ولم يبق من ذكريات العصر الأول إلا القرآن . والقرآن مفتاح الحزن المقيم « والله لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا حزن وذبل ، وإلا نصب وإلا ذاب » ويكرر هذا المعنى كثيراً « والله يا ابن آدم ، لئن قرأت القرآن ، ثم آمنت به ، ليطولن فى الدنيا حزنك وليشتد فى الدنيا خوفك ، وليكثرن فى الدنيا بكائك » . ولذلك قال البصريون « ما كنا نراه إلا أنه حديث عهد بمصيبة » ولذلك حرم على نفسه الضحك . وقد فعل الزهاد هذا من قبله ولكنه ذهب هو بالتحريم إلى أقصى مداه « نضحك ! ولا ندرى لعل الله

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ١٣٧ ، ١٣٨ وانظر أيضاً ١٥ .

(٣) ابن الجوزى : ج ٣ ص ١٥٦ .

قد اطلع على بعض أعمالنا . فقال : لا أقبل منكم شيئاً . ويحك يا ابن آدم هل لك بمحاربة الله طاقة ؟ .

وقد أراد للمجتمع الإسلامى أن يؤمن بالقرآن ، والإيمان بالقرآن ، ونفاذ صوته إلى القلوب إنما معناه الحزن والبكاء ، أن ينتقل الإنسان بين تفاهة الحياة وضآلتها وبين مشاهد القيامة الخالدة . لقد أعلن القرآن « موت الحياة » و« خلود القيامة » . ولا بد لضمان هذا الخلود من إقامة الحداد على الحياة عاجلاً . إن الحياة مأنم يتكرر كل يوم (١) .

وقد تساءل الباحثون عن علة الخوف في آراء الحسن البصرى وكتابات وكلماته . هل كانت مشاهد القيامة حقاً هي السبب في هذا . هذا جانب يفسر لنا علة خوفه . ولكنه لم يكن السبب الحقيقي الكامل في نظرة الحسن البصرى للأمر . إن علة الخوف عند الحسن هي الحزن - الحزن على قصر الحياة . وقد دفعه هذا إلى الخوف من الموت . فكان يجزع أشد الجزع عند رؤيته ، ولم يكن يلقاه بهدوء وثبات ، بل يراه مخيفاً قاسياً . وأداه هذا الخوف إلى التشوف إلى الحياة الآخرة ، إلى الخلود السرمدي في حضرة الله وفي جنانه ونعيمه . أراد أن يستبدل الذى هو أقصر وأكثر فناء بالذى هو أطول وأكثر دواماً . ففكرة الدنيا وحذرهما . وهاهو يرسل إلى عمر بن عبد العزيز « وليس ما يفنى وإن كان كثيراً ، يعدل ما يبقى ، وإن كان طلبه عزيزاً ، واحتمال المؤونة المنقطعة التى تعقب الراحة الطويلة خير من تعجيل راحة منقطعة تعقب مؤونة باقية » . فهذه الدنيا - التى تبدو كثيرة طويلة هى آن قصير في الزمان العظيم ، الذى يبقى ، « فاحذر هذه الدار الصارعة الحادعة الحائلة التى قد تزيت بمخدعها ، وغرت بغرورها ، وقتلت أهلها بأملها ، وتشوقت لخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلوة ، العيون إليها ناظرة والنفوس لها عاشقة ، والقلوب إليها والهة ، ولأليائها دامعة ، وهى لأرواحها كلهم قاتلة » نعم هى قاتلة لهم جميعاً ، فلا تبقى واحداً منهم ولا تذر . فعجباً أن يتعلق بها المتعلقون ويفرح بها الفرحون . وليست هى إلا وهماً وسراباً .

ولقد سيطرت على الحسن فكرة قصر الحياة ، فكان ينظر إليها من جميع أبعادها « ابن آدم ، إنما أنت عدد . فإذا مضى يوم . فقد مضى بعضك (٢) » ويقول مرة أخرى « أعرض عما يعجبك فيها لقلعة ما يصحبك منها . وضع عنك هومها . لما عاينت من فجائتها . وأيقنت به من فراقها . فالقلعة والفراق إذن هو ما يزعج المتأمل لها . البقاء فيها إلى الفناء . وليس فيها بالتالى سرور يمت . بل سرور مشوب بالحزن ولن يبقى فيها باق » إنها تزيل الثاوى الساكن والماضى لن يعود أبداً . والمستقبل مجهول . وهى

(١) أبو نعم الحلية ج ٢ ص ١٣٣ / ١٣٤ .

(٢) الحافظ : البيان والبيان ج ٣ ص ٨٦ .

قصيرة كل القصر^(١) فلا بد أن تكون نظرنا إليها « نظرة^(٢) الزاهد المفارق » لا نظرة « العاشق الوامق » و امش الهوينى . وطأطأ الأرض بقدمك « إنها عن قليل قبرك إنك منذ سقطت من بطن أمك . وأنت لا تزال في هدم عمرك » ويصبح في الناس « ابن آدم إنك تموت وحدك . وتدخل القبر وحدك . وتبعث وحدك وتحاسب وحدك . ابن آدم : وأنت المعنى وإياك يراد . وكان الحسن يعلم تماماً ما في دعوته من صعوبة على الناس . وقد كان هو معلماً كبيراً . وقد دفعته روحه التعليمية إلى ولوج باب من التصوف .

فبدأ يتحدث عن موضوعات في علم إرادة النفس ، وهو العلم الصوفي الخطير الذي سيتضح فيما بعد لدى صوفية الإسلام على وجه الحقيقة . لم يكن الحسن البصرى واضح هذا العلم . ولكن كان من الرواد الأوائل فيه - خلال بعض نماذج وصلتنا عنه .

كان الحسن يرى أن أهم خطوة لتصفية النفس هو إحياء القلب وصلاحه والقلب هو المسيطر على الجوانح ، وهو الذى يسبب الدمعة الغاسلة للخطايا . يذكر ابن الجوزى أنه بينما كان الحسن في المسجد ، إذ أخذ يتنفس نفساً شديداً ويكى حتى أرعدت منكباها . ثم قال « لو أن بالقلوب حياة ، لو أن بالقلوب صلاحاً ، لأبكتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة . إن ليلة تمخض عن صبيحة يوم القيامة ما سمع الخلائق بيوم قط أكثر من عورة بادية ، ولا عين باكية من يوم القيامة »^(٣) . فكان يطلب من مرديه أن يخاطبوا القلوب ، وأن يراقبوا الأنفس « حادثوا هذه القلوب ، فإنها سرية الدثور ، واقدعوها هذه الأنفس فإنها طلعة ، وإنها تنازع إلى شرغاية ، وإنكم إن لم تقاربوها ، لم تبق من أعمالكم شيئاً ، فتصبروا وتشددوا فإنما هي ليال تعد ، وإنما أنت ركب وقوف ، يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ، ولا يلتفت فانقلبوا بصالح ما حضرتكم » وكان يعرف أن « هذا الحق » هو وحده الذى يجهد الناس ، ويحول بينهم وبين شهواتهم ، ولا بد من الصبر حتى نتخلص من الشهوات ، ولا تصح العبادة ، حتى نتخلص من الخطايا ، وقد قال له شاب « أعيانى قيام الليل ، فأجاب الحسن . قيدتك خطاياك^(٤) . ولم يرد منهم مناجاة القلوب ، وقدع النفوس وزجرها فحسب ، بل أراد أن يخلق فيهم الإرادة القوية ، والعزم كان يراهم يكون ، إذا استمعوا إليه فكان يصبح فيهم في لباقة نادرة « عجيج كعجيج النساء ولا عزم ، وخدعة كخدعة إخوة يوسف إذ جاءوا أباهم عشاء يكون^(٥) » .

(١) ابن الجوزى : صفة الصفة ج ٣ ص ١٥٧ و ١٥٨ .

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ١٣٦ .

(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ٢ ص ١٩٦ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ١٥٥ .

(٣) ابن الجوزى : صفة . ج ٣ ص ١٥٦ .

ولكى يتكون العزم ولكى تتكون الإرادة ، ينبغى على الإنسان أن يصيب حقيقة الإيمان ، والطريق إليه هو مراقبة عيوب النفس ، والتجاوز عن عيوب نفوس الآخرين أولاً تعيينهم بعيب هو فيك « حتى تبدأ بصلاح ذلك العيب من نفسك ، فتصلحه ، فإذا فعلت ذلك لم تصلح عيباً إلا وجدت عيباً آخر لم تصلحه ، فإذا فعلت ذلك ، كان شغلك فى خاصة نفسك وأحب العباد إلى الله تعالى ، من كان كذلك » وبهذا كان يرمى الحسن البصرى إلى صلاح الفرد عن طريق مراقبة النفس ، وبأس من صلاح الجماعة ، قبل إصلاح الفرد . فإذا تم إصلاح النفس ، وهو أمر عسير ، إنها رياضة متجددة تولد العزم . أى الإرادة الحقيقية المسيطرة .

ولذلك نادى بحاسبة النفس « إن المؤمن قوام على نفسه بحاسب نفسه لله عز وجل . وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة » إن المؤمن الكامل عند الحسن البصرى يفجؤه الشيء ويعجبه ويشبهه أشد الاشتباه ويرى أنه من حاجته . ولكنه ينادى « والله ما من صلة إليك - هيات هيات - هيات - هيات - حيل بينى وبينك . ويفرط منه الشيء ، فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا ، مالى ولهذا ، والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله أحاديث النفس بين الاشتباه والحرام ، بين مطالبها ، وزجرها هكذا حياة المؤمن . ويصحح الحسن إن المؤمن فى وثاق القرآن « يحول بينه وبين التهلكة ، المؤمن أسير فى الدنيا « يسعى فى فكاك رقبتك (١) ، لا يأمن شيئاً ، حتى يلقى الله « إنه مأخوذ عليه فى سمعه وبصره ولسانه وجوارحه ولقد كان للحسن البصرى أكبر الأثر فى الحارث المحاسبى فى أحاديثه ، عن القلب وفى المحاسبة فقد طور الحارث المحاسبى هذه الأحاديث إلى مذهب متكامل فى علم إرادة النفس ، وانتقل هذا الأثر فيما بعد إلى أبى حامد الغزالى . وبهذا القدر من أحاديث النفس ومحاسبتها ، والغوص فى أعماقها ، كان الحسن البصرى - معلم البصرة وكبير عبادها - صوفياً ، بل شيخاً له قدمه الثابتة فى التصوف .

الفصل الثالث

تطور مدرسة البكاء وطائفة

البكائين والمصدر الخارجي

١ - العوامل الداخلية :

كانت أميز ظاهرة لدى عباد البصرة هو الخوف والحزن ، وطريق الخوف والحزن وأدائها البكاء . وقد بدأ الخوف والحزن والبكاء لدى أوائل هؤلاء العباد : عامر بن عبد قيس ، بل دعا إليه شيخ قراء البصرة : أبو موسى الأشعري ، ثم وصل كل هذا - الخوف والحزن والبكاء إلى مداه لدى الحسن البصري ، وسنراه - بعد قليل أعمق وأعمق لدى تلامذته ، العرب والفرس منهم بل الأرمن أيضاً . جميعاً في حلقة إسلامية لا نظير لها في تاريخ الإنسانية كلها . وسنرى «البكاء» أيضاً في الكوفة لدى صوفيها ولدى أتباع علي - هؤلاء - الذين تسموا - فيما بعد - بالشيعة . وسنراها لدى عابد من كبار عباد أهل البيت ، ومن العترة النبوية ، ومن شجرة فاطمة الزهراء ، الإمام علي بن الحسين ، المعروف بزین العابدين . وينشأ البكاؤون على أثره ، وسيستشر بعده التعبير «أرق من دعة شيعة» وبعد : فما هو مصدر هذا البكاء سواء في مدرسة البصرة أو في مدرسة الكوفة أو في مدرسة علي بن زين العابدين في المدينة ، أو بمعنى أدق ما هو مصدر الحياة الروحية الإسلامية في هذا العصر المتقدم . إن من الواضح تماماً أن الرجل العادي من المسلمين كان يفجؤه منظر هؤلاء العباد في البصرة وفي الكوفة وفي المدينة . لم يكن الإسلام يتطلب هذا الحزن القائم ، هذا الخوف المتقول ذا القشعرية ، هذا السيل المنهمر من البكاء والدموع اللادعة . كان الإسلام - أركان المسلمون - الرأخون والغادون - في مجارى الحياة في هذا الوقت يأملون في رحمة الله أكثر مما أمل هؤلاء الخائفون :

لم تكن لفكرة «قصر الحياة» اليونانية هنا مدخل . آمن هؤلاء الخائفون بخلود الفرد «روحاً وجسماً» . ولأجل هذا الخلود الفردى الأخرى ، رأوا قصر الحياة الأرضية . وخافوا العقبي في الآخرة . إنهم عرفوا أن الحياة هنا سير قصير ، وأن الحياة هنالك مستقر مقيم فأرادوا التحلل من الأولى ، لضمان الثانية . وتأملوا مناظر النار المستعرة في القرآن ، فشغلهم أشد الشغل ، ولم يروا غيرها .

إن صورة النعم نفسها كانت باهتة في أنظارهم ، أو أمراً بعيد المنال . كل ما رآوه فقط أشكال النار العاتية . فبكوا وبكوا في ذلة وانكسار ، حتى يدخلوا على الله « الجبار » من جانب الضعف . وكانت المناظر - كما رأينا - أمامهم قرآنية بحتة . وقد عاون على رسم هذه الصورة - الحياة الإسلامية كلها سياسية واقتصادية .

لقد قتل الخليفة عثمان ، فبكى أهل البصرة بكاءً حقيقياً ، لقد قتل صاحب الحبي الوديع ، الذي ملأ الدنيا عبادة وقرآناً ، والذي أعطاه محمد ﷺ ابنه ، وآمن إليه ووثق به . مات فني قریش وسيدها . حقاً . إنه حمل بنى معيط وبنى أمية على رقاب المسلمين ، ولكن مقتله في يوم شؤم قائم ، أفرغ قراء البصرة وزهادها . ونسوا أن أحد عماله قال : « إنما هذا السواد بستان لقریش (١) » ولكن ما لهم ولهذا ، إن صاحب الثالث لرسول الله كان البقية الباقية من عصر الأجداد الكبار ، عصر مطلع النور وانبثاقه . . . وما هو مسجى بدمائه ، والكتاب الإلهي الذي جمعه على صدره . والفتن باب الزهد .

وقتل الخليفة على ، في يوم أشد شؤماً وأكثر قتامة . قتل أكبر العباد « وسيد الصحابة » و « ابن عم الرسول » و « زوج » فاطمة الزهراء الجميلة و « باب مدينة العلم » و « حامل الأسرار » وبكت الكوفة وبكت البصرة وبكت الحجاز . بكى العالم الإسلامي كله ، وعاف الناس الحياة . وتولى بنو أمية رقاب المسلمين ، وتحكم في البصرة الطلقاء وأولاد الطلقاء ، كما تحكوا في الكوفة ، وأصبح السواد فعلاً بستاناً لقریش . ويأتى كما يعبر الحسن البصرى « ذلك الغلام السفية الجبان » عبيد الله بن زياد ، ابن مرجانة ، وحفيد الزنا والفسق ، يتخذ له قصرًا يسميه البيضاء ، وزينه بالصور « وينظم لنفسه حرساً من البخارية ويتحل مظهرًا كسروياً وأبهة فارسية (٢) » ينفك الدماء ، ويقتل أبناء الأنبياء ، ويتعالى على الصحابة ويتأدى ، ويحاول إذلالهم بكل ما أوفى من سلطان وقوة وحيلة . . . وتعبد العابدون وزهد الزاهدون ، وتركوا الدنيا وراء ظهورهم . . . واتجهوا إلى صور الآخرة فبكوا وبكوا . . .

وكانت البصرة ثغر التجارة ، أتى إليها العرب والفرس والهند ، كما أتى إليها النصارى واليهود . وازدادت غنى ، بل اغتنى أيضاً عدد كبير من الصحابة ، ومن رجال الصفة أنفسهم . وأصبح الإنسان يسود « بالدينار » وقام أبوذر الغفاري بدعوته ، كما قام عامر بن عبد قيس . وانعكس كل هذا على المجتمع البصرى ، كما انعكس على المجتمع الكوفى . ورأى الكثيرون أن حقيقة الإسلام ، غير هذا . فلجأوا للعبادة ، وبكوا وبكوا .

كانت كل هذه العوامل الداخلية ، أى المنبثقة من صميم الحياة الإسلامية هى الداعية إلى قيام هذه العبادة الحزينة ، أو هذا الحزن العبادى ، كانت رد فعل لكل ما فى المجتمع الإسلامى من آلام وآمال ، وأفراح وأحزان .

٢ - العوامل الخارجية :

ولكن الباحثين فى تاريخ الحياة الروحية الإسلامية لا يقتنعون بهذا ، ويحاولون رد هذا الحزن إلى عوامل خارجية ، أو على الأقل كانت هناك - فى نظر هؤلاء المستشرقين - عوامل خارجية عاونت على قيام هذا النوع القائم من الحزن ، بالإضافة إلى العوامل الداخلية المنبثقة من الإسلام كدين يحض على الزهد ، ومن المجتمع الإسلامى المتطور .

ويرى الباحثون من الغربيين أن أهم العوامل الخارجية التى أثرت فى قيام الزهد فى المجتمع البصرى خاصة هى المسيحية أو بمعنى أدق الرهبنة المسيحية بما فيها أيضاً - وعلى الخصوص - من ظاهرتى الحزن والبكاء . ومشكلة أثر المسيحية فى التصوف مشكلة محيرة فعلاً .

والباحثون يتساءلون دائماً إلى أى مدى حصل الاتصال بين رهبان المسيحيين وبين الزهاد أو العباد الأوائل ، وبأى معنى تحقق الأثر والمؤثر ، وإلى أى مدى أخذ هذا من ذلك أو ذاك من هذا ويتصدى الآن لبحث هذا الموضوع الخطير - كما ورد فى المصادر العربية - العلامة العراقى الدكتور كامل مصطفى الشيبى . وسنحاول نحن هنا - طبقاً لما لدينا من مصادر - إلقاء بعض الأضواء على هذا الموضوع المتشعب النواحي .

أما أن اتصالات تمت بين المسلمين والمسيحيين ، فهذا مما لا شك فيه . تجاوروا فى مصر وفى الشام ، كما تجاوروا فى ما بين النهرين ، وحين أنشئت البصرة والكوفة ، أتى المسيحيون ، كما أتى اليهود إليها . بل كان للمسيحيون فى مدينة رسول الله . ونرى واحداً منهم مملوكاً لعمر بن الخطاب هو : وثيق ابن الرومى . وقد طلب منه عمر بن الخطاب أن يسلم ، حتى يستعين به على أمانة المسلمين ، لأنه لا ينبغي أن يستعين على أمانة المسلمين بمن ليس منهم ، ولكن وثيقاً أبى . وتركه عمر وقال « لا إكراه فى الدين » فلما حضرت عمر الوفاة أعتقه وقال له : اذهب حيث شئت (١) . كان المسيحيون هنا وهناك : وانتشرت الكنائس والأديرة فى البلاد المفتوحة ، وقد رأينا كيف دعى بعض عباد المسلمين بالرهبان ، بل نرى واحداً من هؤلاء العباد يدعى « بهار الراهب » وتذكر المصادر عنه أنه « كان من العاملين لله فى دار الدنيا » وكان يتردد دائماً على مجلس عيسى بن زاذان بالأبلة ، وكان يقابل هناك

(١) السهروردى : عرارف المعارف ص ٨٣ و ٨٤ .

«مسكينة الطفاوية» ، وكانت مسكينة أيضاً من تلميذات حلقة ذكر ابن زاذان . ولا توفيت رآها في منامه ، ولما ناداها باسمها مسكينة : قالت : هياها يا عمار : ذهبت المسكنة وجاء الغنى الأكبر (١) . وكما رأينا وسنرى أيضاً زيارات العباد للأديرة حقاً كان هناك ما يفصل بين طريق الرهبنة وطريق العبادة الإسلامية : وهو الزواج . وقد تواترت الأحاديث في نهى الرسول ﷺ عن العزوبة ، واعتبارها من تقاليد الرهبان ، وليست من سنة الإسلام ، ولكننا نرى عامر بن عبد قيس يمتنع عن الزواج ، ويحقق الدولة معه في هذا . حقاً ، إن حادثة فردية لا توسم العبادة الإسلامية الأولى ، أو الزهد الإسلامي الأول بصيغة مسيحية ، قد تزوج العباد جميعاً ، وكانت لهم الأسرة والولد ، بل تزوجت العابدات - كمعاذة وورابعة العدوية وشعرانة بنت إسماعيل ، تزوجن جميعاً ، ولكن حادثة عامر بن عبد قيس - برغم كل هذا تسرعى النظر وتستوقفه . وسنرى بعد - أبا سليمان الداراني ، كيف يمجّد العزوبة ، وينأى هو عن الزواج ، سنرى هذا أيضاً في مدرسة بغداد لدى بشر بن الحارث المشهور ببشر الحافي . وقد رأينا أيضاً صوراً من لبس الصوف ، والصوف لباس الرهبان ، فهل أخذه هؤلاء العباد من الرهبان المسيحيين ، أم أن الصوف كان لباس عامة العرب الفقراء ، وقد لبسه هؤلاء العباد - حين تمش الأمويون وطغاة أهل الشام بالطيلسانات والديباج والحز - لقد رأينا وسنرى كيف ينهى كبار العباد ويزجرون من يلبس الصوف من أتباعهم ، فالحسن البصرى يسخر من فرقد السبخى - وكذلك حماد بن سلمة . كما رأينا أيضاً من ينهى عبد الكريم أبا أمية عن لبسه . ولكن هذا يعنى أن اتصالاً قد تم بين بعض العباد وبعض الرهبان .

وأخيراً - إن بعض هؤلاء العباد كانوا من أصول مسيحية ، فقد كان الحسن البصرى ابناً «ليسار» فارسي مسيحي . كما كان فرقد السبخى في بعض الأقوال - أرمينيا . فهل كان هناك أثر من آثار الدين القديم فيها ، أو بمعنى آخر ، هل ثمة تعاطف حضارى داخلى وراثى بين عبادتها الجديدة ودينها القديم .

بل إننا نجد اسم «راهبة» بين أسماء المسلمات في ذلك الحين - فيذكر ابن الجوزى أن أم عثمان بن سودة الطفاوى كانت من العابدات ، ويقال لها «راهبة» . ويبدو أن هذا كان اسمها الحقيقي ، ولم يكن «وصفاً» أطلق عليها . إننا لا نجد في تراثها ما يدل على أثر مسيحي سوى اسمها . كل ما لدينا من أخبار عنها ، أنها حين احتضرت ، رفعت رأسها إلى السماء وقالت «يا ذخرى ويا ذخيرتى ، ويا من عليه اعتمادى في حياتى وبعد موتى ، لا تحذلى عند الموت ، ولا توحشنى في قبرى» فانت . ويذكر ابنها عثمان بن سودة أنه كان يأتي قبرها في كل جمعة فيدعو لها ولأهل القبور ويستغفر . ثم رآها ذات ليلة في

منامه . فقال لها : يا أماه كيف أنت . قالت : أرى بنى إن للموت لكربة شديدة ، وأنا بحمد الله لى برزخ محمود ، نفترش فيه الريحان ، وتوسد فيه السندس والاستبرق إلى يوم النشور . فقال لها : ألك حاجة . قالت : نعم : لا تدع ما أنت عليه من زيارتنا والدعاء لنا ، فأنى أبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من عند أهللك . يقال لى : يا راهبة : هذا ابنك قد أقبل من عند أهله زائراً لك فأسر بذلك ، ويسر بذلك من حولى من الأموات (١) « ومع أننا لا نجد - كما قلت فى هذا - تراثاً مسيحياً ، إلا أن مجرد تسميتها براهبة يدل على ما كان فى قلوب المسلمين من احترام ومودة للرهبان والراهبات . كما يذكر أيضاً أنه كانت لرابعة بنت إسماعيل الزاهدة الشامية أخت سميت أيضاً براهبة . وذكرت رابعة لزوجها الصوفى أحمد بن أبى الخوارى أنها « دخلت على أخت لى عاتق بالموصل » وأنها فسرت لى الآية « إلا من أتى الله بقلب سليم » والقلب السليم عندها هو الذى يلتقى الله وليس فيه شىء غير الله ، ولما حدث أحمد بن أبى الخوارى شيخه الكبير أبى سليمان الدارانى بهذا - قال له « ليس هذا كلام الراهبة ، هذا كلام الأنبياء (٢) » .

٣ - التصوف المسيحى فى البلاد الإسلامية .

وانتشر الآن إلى المسرح المسيحى نفسه فى البلاد الإسلامية قبل الفتح الإسلامى وبعده . ماذا كان هناك من اتجاهات روحية .

كان الرهبان هنا وهناك بلا شك ، فى صوامعهم وبيعتهم . كان هناك الأسانيون Les isseniens - أو العيسويون - أتباع المسيح الحقيقى . وقد تكلمنا عنهم من قبل . كانوا فى فلسطين وفى العراق . وكانت التساطرة بالذات تنتشر فى العراق ، مع أقلية من الملكانية ولم تفرض التساطرة العزوبة على رجال كهنوتها ، كما فعلت الملكانية ، وانتشرت الملكانية فى الشام مع أقلية من التساطرة ، وقد فرضت الملكانية العزوبة على رهبانها . أما فى مصر ، فقد انتشرت اليعاقبة مع أقلية من الملكانية ، وكانت اليعاقبة أيضاً تفرض العزوبة على رجال كهنوتها . وإلى الكوفة والبصرة أتى عدد من نصارى نجران ، وقد أجلاهم الخليفة عمر بن الخطاب عن الجزيرة العربية ، حتى لا يكون فى الجزيرة دبنان ، وقد حمل هؤلاء كثيراً من تراثهم المسيحى وطقوسهم . ولكن لا نسمع أبداً فى قلب المدينتين عن رهبنة أو كنائس . يبدو أن الرهبان كانوا موزعين فى بعض نقاط من الصحراء ، ويذكر بعض المؤرخين - كما قلت - إن بعض المسلمين كانوا يبرون بهم ويرددون عليهم . ويذهب جولد تسيهر إلى القول بأن أول

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٨ .

(٢) نفس المصدر : ج ٤ ص ١٦٤ .

مدرسة للزهد في الإسلام إنما تكونت حين انتشر الإسلام في الشام والعراق ومصر ، وخالف المسلمون المسيحيين وقد أفسحت هذه المحالطة للنفس المتعطشة إلى الزهد هذا المجال الروحي ، « إن التجارب التي تيسر لتلك النفوس اكتسابها بمخالطتهم المسيحيين أصبحت دون ريب مدرسة الزهد في الإسلام ، ومنذ ذلك الوقت ظهرت هذه الميول النسكية في وضوح وجلاء ، وبسطت نفوذها على آفاق أخذت تتسع شيئاً فشيئاً » ويرى جولد تسيير مستنداً على أبحاث مرجليوث ، أن أصحاب هذه النزعة أكملوا هذا فيهم بما انتحلوه من شواهد وأدلة من العهد الجديد وأن أقدم مؤلفات في الزهد تقتبس دائماً من أسفار العهد الجديد . وأن هناك شواهد خفية تثبت هذا الانتحال . بل يذهب جولد تسيير إلى أن الزهاد الأوائل نسبوا للرسول محمد ﷺ أحاديث تكاد تكون فقرات من العهد الجديد - ويعطى مثلاً لها حديث التوكل « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم ، كما يرزق الطير ، تغدو خفافاً ، وتروح بطاناً ، ولزالت بدعائكم الجبال » ويرى أن هذه الفقرات موجودة بعينها في إنجيل متى - الإصحاح السادس أعداد : ٢٥ : ٣٤ ، وإنجيل لوقا إصحاح ١٢ أعداد ٢٢ ، ٣٠ وهي التي تتحدث عن طير السماء التي لا تبذر ولا تحصد ، ولا تكدس الحبوب في الهواء ، ولكن يغذيها خالقها (١) والمقارنة مبتسرة بل تدل على حمق جولد تسيير ومحاولته بكل الوسائل أن يسلب عن الإسلام كل جدة . إن فكرة التوكل فكرة إسلامية بحتة ، ثم إن رزق الله للطير معنى عام ، يستكشفه نبي - يتكلم مع الناس ، عمومهم وخصوصهم ، ثم إذا افترضنا التوافق التام بين حديث النبي والفقرات الواردة في إنجيل متى ولوقا ، فلا ضرر ولا ضرار . إن الإسلام يعلن أنه أتى قرآناً وحديثاً ، مصدقاً للتوراة والإنجيل . ولم يدع الإسلام أبداً أن التحريف وصل إلى أخلاقيات الإنجيل . إن الإسلام والمسيحية في أخلاقياتها إنما ينبعان عن مصدر واحد وأصل واحد .

٤ - نظرية نيكلسون :

وقد ذهب نيكلسون إلى نفس الرأي - بل قرر أنه قد ظهر بين الزهاد طائفة تعرف بالبكاين . ويرجع أن هذا الاسم قد أخذه المسلمون عن رهبان المسيحية (٢) . وهذا خطأ بالغ من نيكلسون . لم يعرف اسم البكاين بين الزهاد أو العباد الأوائل أبداً . عرف اسم الخائفين ، واسم العباد أما طائفة « التواين » فقد عرفت في الكوفة بعد استشهاد الحسين في المدينة . فنشأتها شيعية بحتة ، وعرف اسم « البكاين » أيضاً في المدينة بعد استشهاد الحسين على يد علي بن الحسين ، زين العابدين . ولم يعرفه

(١) جولد تسيير : العقيدة والشريعة ص ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٢) نيكلسون : في التصوف الإسلامي ص ٤٧ .

على زين العابدين ، عن طريق الزهد ، وإنما استنه بعد موت أبيه وإخوته وأهله أمام عينيه في كربلاء . فلم يكن ناشئاً إذن عن تأثر بمسيحية أو رهبنة . حقاً عرف البكاء لدى العباد في البصرة والكوفة ، ولكنه كان مرتبطاً فيها وفي غيرها في البلاد الإسلامية بفكرة الحزف التابعة عن مشاهد العذاب القرآنية في الآخرة .

ويرى نيكلسون أيضاً أن لباس الزهاد الأوائل - الصوف مأخوذ من الرهبان ، وقد بينت من قبل أن لباس الصوف لم يكن سمة العباد الأوائل وأنهم نبهوا عنه نهياً كاملاً ، ثم يذكر أن عهود الصمت لدى هؤلاء العباد كان مسيحياً ولم نر في عهود العبادة الأولى ولدى العباد الأول «عهود الصمت» هذه . وإذا وجدت لدى البعض ، فقد كانت مأخوذة من القرآن . وقد ذكر القرآن الصمت في مواضع منه . ويرى نيكلسون أنه مما يدل على استناد الزهد الأول على المسيحية وتعاليمها وتقاليدها وجود آيات كثيرة من التوراة والإنجيل في كتابات أولياء المسلمين الأوائل ، علاوة على أن القصص الإنجيلية التي كان يقصها رهبان المسيحية قد صادفت هوى في قلوب المسلمين ، وقد نشر وهب بن منبه مجموعة من الإسرائيليات ، كما انتشرت قصص الأنبياء السابقين ويقرر أيضاً أن عباد المسلمين السائحين كانوا كثيراً ما يجتمعون في صومعة راهب أو عموده ، يلتق عليهم مواظمه ، ويلهم على طريق الخلاص (١) . أما أن الإنجيل قد عرف طريقه إلى المسلمين في هذا الوقت ، وكذلك قصص الأنبياء المأخوذة عن العهدين القديم والجديد ، فهذا ما لا يمكن إنكاره . بل أخذ المسلمون بشرع من قبلنا إذا لم يكن في شرعهم ما ينقضه . والدين واحد عند المسلمين ولكننا رأينا كيف كان كبار العباد ينكرون على مرديهم وأتباعهم التشبه بالنصارى والأخذ عنهم . أما تلك الصور الشعرية الفاتنة عن اجتماع الزهاد والعباد على راهب واستماعهم إليه يعظمهم ، ويدخلهم إلى طريق التصفية ، أو اجتماع راهب ورهبان على زاهد أو عابد يستمعون إليه ، ويدلهم هو على طريق الخلاص ، ويبين لهم سمو الطريق المحمدي على غيره من الطرق . ويرتلون أغانيهم فيرتل لهم المثنائي والقرآن العظيم . . . كل هذه الصور الشعرية الفاتنة إنما هي إلى خيال المؤرخين أوصل . . . فعلوا هذا في سيرة الرسول . . . استمع إلى مجمر واستمع مجيراً إليه . واستمع إلى ورقة بن نوفل ، واستمع ابن نوفل إليه وشهد الجميع بأن ناموسه أعظم من ناموس موسى وعيسى . أما بعد : إن طريق العباد والزهاد واحد ، وإن اختلفت المذاهب والفرق والتزعات والأديان ، هل هذا ما يقصده مؤرخو التصوف والعبادة والزهد من الأقدمين . وفي سبيل هذا افتعلوا تلك اللقاءات . وإذا كانت قد تمت ، فهل في هذا ضير على الحياة الروحية الإسلامية ، إن الإسلام نفسه يقرر قراراً حاسماً أن دورته إنما أتت للعودة إلى الدين النقي ، دين إبراهيم وموسى وعيسى

وغيرهم من النيين لا يفضل أحداً من رسله . ولم يفهم المستشرقون هذا أبداً ، وإنما دأبوا على تكرار أن الإسلام أخذ من اليهودية والمسيحية وأن فكره العقلي مأخوذ من تفكير المسيحيين واليهود ، وأن حياته الروحية مأخوذة من هذه وتلك ، وأن شريعته مزيج من قوانين اليهود والنصارى ، وأن أخلاقه هي المسيحية معدلة . هؤلاء الحمقى من الباحثين كأنهم لم يقرأوا القرآن بحق ولم يتفحصوا الحديث بصدق ، والاثنان يعلنان أن الدين واحد ، وأن ما تعدد هو صور الأنبياء ، وأن الحقيقة واحدة ، متكررة على لسان موسى وعيسى وعمد .

٥ - نظرية مارجريت سميث :

ولكن ما تلبث مارجريت سميث ، وهي إحدى الباحثات الممتازات في حقل التصوف العظيم أن تحاول أن تلقى الضوء على الاتصالات الأولى بين المسلمين العباد وبين المسيحيين . وقد قامت مارجريت سميث بدراسات عارمة عن التصوف المسيحي في الشرق الأوسط - وتتبع حركة الديرية والرهبة في صبر عجيب . وقدمت في دراساتها نماذج متعددة للزهاد المسيحيين الأوائل في مصر وشمال أفريقيا وآسيا الصغرى والشام وفلسطين والعراق وفارس ، كما قدمت نماذج عن الزاهدات والراهبات المسيحيات وحياتهن . ثم أعقبت هذا يبحث عن التصوف المسيحي في الشرق الأوسط . وكان من أهم النماذج التي قدمتها : نموذج سانت كليمانت الإسكندري وسانت باسيل العظيم والقديس أوغسطينوس والقديس أفرايم السوري وإسحاق النينوى ثم ديونوسيوس الأريوياجي المزعوم . . . وستكلم عن كثير من هذه الأسماء خلال عرضنا لمراحل الزهد ولراحل التصوف ، وسنكتفي هنا بفحص صلة هؤلاء الزهاد من المسيحيين بالعباد الأوائل من المسلمين ، وإلى أي حد تذهب هذه الصلات .

وتحاول مارجريت سميث أن تثبت أن روح العبادة والترهد في الجاهلية والإسلام الأول ، إنما تمت إلى أصول مسيحية . وتقرر أن الأحناف كانوا مسيحيين ، وتضع مثلاً هؤلاء - زيد بن عمرو بن نوفل : وقد بينت أنا من قبل تهافت فكرة مسيحية زيد بن نوفل . وتقول مارجريت سميث « إن ظهور الأحناف إنما كان جزءاً من حركة الزهد التي انتشرت في الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي مستلهمة مثال الرهبان المسيحيين ، وقد كانوا متشربين هناك . كما كان بين صحابة الرسول أبو ذر الغفاري وحذيفة ، وقد اشتهرا بترهدهما (١) » وتذكر مارجريت سميث أهل الصفة . ثم تذكر أيضاً أن فكرة العزوبة سمة الرهبة المسيحية في مصر والشام ، وقد رفضها الرسول رفضاً باتاً ، قد وجدت صدى

لدى بعض المسلمين ، ولم تكن بخافية على المسلمين حتى في عصر الرسول نفسه ، وقد أوردت عن الطبري أن سعد بن خيشمة كان عزباً وأنه كان هناك عزاب بين الصحابة لجأوا إلى بيت ابن خيشمة ، وقد عرف هذا البيت باسم بيت العزاب . ونقرر أن ابن بطوطة قد رأى أطلالاً لمزل بجوار المدينة - قيل إن عمر بن الخطاب بناه للعزاب من المسلمين (١) فالعزوبة الرهبانية لم تكن مستكرة عند المسلمين في رأى مارجریت سميت ، ثم تعطى م . سميت مثلاً عن الصمت المسيحي بامرأة أحمدية ذهبت للحج في عهد أبي بكر - وقد فرضت على نفسها الصمت طوال حجها . ثم مثلاً آخر عن العزوبة وهو عامر ابن عبد قيس . ثم نجد مارجریت سميت في أسفار وترتيلات القديس أفرايم مصدرراً للزهد في الدنيا عند المسلمين .

ورأت مارجریت سميت أن العباد الأولين كانوا يلبسون الملابس البيضاء تشبهاً برهبان المسيحيين . وقد كان إيفاجريوس يطلب من الرهبان لبس جلود الماعز - وقد كان طريق العباد الأولين في عبادتهم - هو الخوف - لخلّص النفس . وهو هدفهم الأسمى . وقد تابعوا في هذا وصايا القديس باسيل - وكانت آراؤه منتشرة في الأديرة المسيحية قبل الفتح الإسلامي - وكان باسيل يرى نفس الشيء ، أن للحياة الزهدية غاية واحدة ، هي خلاص النفس . والطريق لخلّص النفس هو الوصية الإلهية الغالبة - الخوف ، فلا بد أن يقارن الخوف الطريق المؤدى إلى خلاص النفس . ذلك أن وصايا الله لها غاية واحدة هي أن ينجو بها من يعمل بها .

ثم اتخذت مارجریت سميت مثلاً لهؤلاء الخائفين المسلمين : الحسن البصري . وحاولت أن تقارن بين أقواله وبين أقوال القديس باسيل . فتصديت من أقوال الحسن من حلية الأولياء قوله « الرجاء والخوف مطيبتا المؤمن (٢) » ثم استنتجت من أقواله أيضاً أن على المسلم « أن يغلب الخوف على الرجاء ، فإن الرجاء إذا غلب الخوف ، فسد القلب » وقد حاولت أن ترى شيئاً لهذا في آراء القديس باسيل . كان باسيل يرى أن الرياضة الروحية تكون أجدى - عند أولئك الذين دخلوا لتوهم حظيرة التقوى - إذا ما قامت على الخوف » ويذكر باسيل أن سليمان أحكم الحكماء قد قدم لنا هذه النصيحة في (سفر الأمثال ١ : ٧) حين قال « إن مخافة الرب هي أول الحكمة (٣) » .

ومن العجب أن مارجریت سميت تركت أكثر أقوال الحسن البصري - وهي منتشرة مبثوثة في

(١) نفس المصدر ص ٥٤ .

(٢) أبو نعم : حلية ج ٢ ص ١٥٦ .

(٣) . . Smith: Studies in Early Mysticism P. 151 .

وانظر أيضاً الأستاذ جريدباوم : حضارة الإسلام ص ١٦٢ - ١٦٣ .

وقد استند الأستاذ جريدباوم على أبحاث مارجریت سميت .

الكذب ، وهي تتصل كلها بالتراث الإسلامي البحث ، لتصيد عبارة واحدة تقارن بينها وبين أقوال القديس باسيل . ولم نر في تراث الرجل أبداً ما يدل على صلة بدين غير الإسلام . إن هناك بعض العبارات الغريبة في تراثه - ولكن في التحليل الباطني لها هي إسلامية بحتة : ومن الأمثلة على هذه التعبيرات الغريبة « ابن آدم : السكين تجذ ، والكيش يعتلف والتنور يسجر » قد يبدو هذا التعبير غريباً على التراث الإسلامي في عهده ، ولكن معانيه كلها إسلامية ، يضفي عليها مزاجه الفارسي غرابة في التعبير . ثم ماذا هناك ، لو صادفت معانيه انطباقاً على معاني القديس المسيحي . إن الاثني بنبعان من منبع واحد : النبوّة الدنيوية والرسالة الإلهية سواء أكانت عن محمد أم عن عيسى . ونحن نلاحظ أيضاً أن هؤلاء الرهبان والقديسين كانوا غارقين ومستهلكين في تصورات الرحمة والمغفرة ثم في الفرض المسيحي الكبير « المحبة » فلماذا لم تنعكس وتظهر في أقوال هؤلاء العباد ، وتتضح وضوح الخوف . ثم إن الرهبان والقديسين كانوا يعتزلون العالم ، ولم يفعل عباد المسلمين وزهادهم وصوفيتهم فيما بعد هذا ، فالخلاص عند عباد المسلمين لا يتم باعتزال الناس ، إن العابد المسلم يعتزل « الفتنة السياسية » وهي التي تمزق المسلمين ، ولكنه لا يعتزل الجماعة أبداً ، بل يعمل على صلاحها ، بإصلاح الفرد ، يعتكف ليلاً ، لكي يعقد الحلقات نهاراً يقص ويعظ .

وتمضي مارجرت سميت في مقارنتها أوفى وضع نظرية الأثر والمؤثر والمتأثر فتقرر كما قلنا من قبل - إن ترتيبات القديس أفرايم أثرت في المسلمين . وتعطى مثلاً لهذا ، الترتيل الآتي الذي كتبه هذا القديس : أيتها الدنيا . . . وأسفاه ، كم أنت محبوبة . . . مفاتنك كثيرة . . . ولكنها ليست باقية . . . إنك لست إلا حلماً ، ولا وجود لك في الحقيقة . لأجل هذا أيتها الدنيا الآفنة - . . . إني لأهجرنك الويل لمن يحبك - أيتها الدنيا إنه سيقع في شركك ، وفي الشباك التي تصيبتها له إنه سيفقد نفسه ولن يملكك ، إني - لأهجرنك . . . أيتها الدنيا الآفنة . . . إن قوة الله ورحمته إنما هي لهؤلاء الذين يرفضون هذه الدنيا ، ويمضون إلى الفناء ويتأملون دائماً فيها هو باق ، لأجل هذا - إني لأهجرنك - أيتها الدنيا الفانية .

وترى أن البكاء المشهور في الكنيسة السوربانية قد أثر في البكائين المسلمين . وأن الحسن البصري حين امتنع عن الضحك ، إنما تأثر أو كان ممثلاً للقديس باسيل ، وقد نهى أيضاً عن الضحك . وتقرر أن القديس باسيل في مواعظه الطويلة كان يطلب الامتناع عن الضحك كقاعدة من قواعد الزهد . ثم تضع ثلاثة أمثلة للبكائين : الأول عبد الواحد بن يزيد (المتوفى عام ٧٩٣ م) ومن تلامذة الحسن البصري ومدرسته . وكان عبد الواحد بن زيد يقول - وهو يقص - « يا إخوتاه . ألا تبكون شوقاً إلى الله عز وجل . إلا أنه من بكى شوقاً إلى سيده ، لم يحرمه النظر إليه ، أي إخوتاه ألا تبكون خوفاً

من النار . ألا إنه من بكى خوفاً من النار ، أعاده الله منها . يا إخوتاه ألا تبكون خوفاً من شدة العطش يوم القيامة ، يا إخوتاه . ألا تبكون . بلى . فابكوا على الماء البارد أيام الدنيا ، لعله يسقيكموه في حظائر القدس ، مع خير الندماء والأصحاب من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً^(١) » ثم يندفع في البكاء .

والمثال الثاني : شعوانة ، العابدة الإبيلية ، وهي تبكي بكاءً ، شديداً ، حتى يخاف عليها الناس العمى ، فلما كلموها في هذا ، قالت : أعمى والله في الدنيا من البكاء ، أحب إليّ أن أعمى في الآخرة من النار^(٢) » وكانت تقول « من استطاع منكم أن يبكي فليبك ، وإلا فليرحم الباكي ، فإن الباكي إنما يبكي لمعرفة بما أتى إلى نفسه^(٣) » .

والمثال الثالث : مثال أبي سليمان الداراني : شيخ مدرسة الشام ، وستكلم عنه في حينه ، حين نتفحص مدرسة الشام ، نشأتها وتطورها . وقد نقلت مارجريت سميث أيضاً نصّاً طويلاً له عن الرمالة للقسري يمجّد فيه البكاء .

ورأت مارجريت سميث أن عباد المسلمين اتخذوا طريق البكاء عن رهبان المسيحية وزهادها الأوائل . وقد كان البكاء عندهم طريق التوبة . وأهم مثال لهؤلاء الزهاد هو أفرايم السوري . وإذا كان التنفس الطريق العادي الطبيعي للناس ، فقد كان البكاء الطريق الطبيعي العادي لأفرايم . فلم يكن يمضي نهار أوليل أو ساعة أو لحظة مها كانت قصيرة ، إلا وعينا القديس أفرايم مفتوحتين مملوءتين بالبكاء ، كان ينوح ويولول على خطاياها ، كما كان ينوح ويولول على خطايا البشر . وقد امتلأت كتاباته بدعوة إلى البكاء والنوح كرمز على التوبة . وكان يعلن أن مشيئته الكاملة التامة في هذه الحياة هي التوسل بكل جوارحه خلال نهبات البكاء ، والدموع التي تجرى كالماء حتى تحصل على الخلاص . وأن قلبه سينفطر بالتأوهات ، حتى يحصل على العفو والمغفرة^(٤)

وتقرر مارجريت سميث أن الزاهد كان يدعى في الكنيسة السوربانية بالبكاء ، وأن إصحق النينوي كتب عن قيمة الدموع وأهميتها للزاهد . حين يبدأ السالك في هجر لذات هذا العالم الجسدية ، ويستقل إلى هذه المجالى التي تكمن خارج هذه الطبيعة المنظورة ، إنه سيصل حينئذ إلى نعمة الدموع مستبداً هذه الدموع وتقوده إلى حب الله الكامل . ويقول أيضاً وما هو تأمل المتوحد في صومعته . . . غير

(١) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٢) نفس المصدر ج ٤ ص ٣٦ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ١٣٠ .

(٤) M. Smith: Early Mysticism P. 151 - 153 .

الدموع . . . ولا يعرف قيمة البكاء ، إلا من وهب نفسه لها . وإذا ما بكى إنسان على الدوام ، فلن تقرب مطالبه الحسية قلبه» وتقارن مارجريت سميث بينه وبين عبد الواحد بن زيد .

أما بعد : فإن دعوى مارجريت سميث ومجموعة المستشرقين دعوى عريضة جداً وينبغي أن تؤخذ بحذر . لقد اتصل بعض العباد بالرهبان ، وسرى كيف كان عبد الواحد بن زيد نفسه يزور بعض الرهبان ، ولكن من الصعوبة بمكان أن نقول : إن طريق المسلمين من العباد كان هو طريق الرهبة ، وأن كل ما فعلوه هو أنهم أخذوا الحزن والبكاء عنهم . لقد نشأ الحزن والبكاء من الإسلام ومن حياة المسلمين الاجتماعية والسياسية ، ثم اتفق الطريقتان ، وأخذ جماعة من العباد يتصلون بالرهبان ، فوجدوا الطريقتين واحداً ، والوسيلة واحدة . في جوهرها . وكان الفرقان يلمان أنها يصدران عن مشكاة واحدة ، هي مشكاة النبوة . ولكن بين الطريقتين بعد ذلك خلاف كبير . إن مجموعة العباد الكبار ثم مجموعة الصوفية الكبار - فيما بعد - تزوجوا وعرفوا متاع الزوجية ، بينما تزوج الرهبان والراهبات الله أو المسيح . وقد أقيمت محاولات متعددة لإثبات أن الحلاج هو مسيح المسلمين ، وبينما لم يتزوج مسيح النصارى تزوج مسيح المسلمين ، وأعقب ذرية عاشت بعده ، وأقيمت محاولات لإثبات أثر المسيحية النافذ في الغزالي ، وكان الغزالي مفكر الإسلام ، تزوج وأولد وكتب في الفقه وفي الأصول وفي الفلسفة وغيرها . . . وكان طريقه يختلف عن طريق الرهبان وصوفية المسيحيين . حقاً إنه استمد من تراث المسيح ما يؤيد الجانب الأخلاق في تصوفه . ولكن كما قلت من قبل مراراً - إن مفكرى الإسلام لم ينكروا أبداً - طريق المسيحية الأخلاق . كانوا على إيمان كامل بأنه هو طريق الإسلام الأخلاق . وقد أنكر الغزالي الجانب اللاهوتي من المسيحية ، وناقشها بصرامة وعنفة ، ولم يقبل المسيحية التي في أيامه كدين له نظام خاص فكري ، ولكنه قبل من التراث المسيحي الروحي ما يوافق صورة المسيح القرآني ، قد يختلف الأمر مع الحلاج - من قبله - قليلاً - لقد نادى الحلاج - كما سرى - بالحلول الصوفي ، ولم يكن الحلاج في دعوى الحلول مسيحياً أول الأمر ، كان يصدر عن سياق خاص سنيته حين نبحت آراءه ونظرياته ، ثم وجد في المسيحية ما يؤيد دعواه ، فنادى بعبارات مسيحية بلاشك . ولكن حين أخذته يد الجلاذ ، وقطعت يده ورجلاه ، ولم يعد من الموت مفر ، وتقدم «السياف» إليه ، وشعر الحلاج أنه في حضرة القدس ، نادى الله ، والحلائق تسمع ، بكلمة التوحيد الإسلامية . . .

الفصل الرابع

امتداد مدرسة الحسن البصرى

أصحاب الأکسية

ونعود إلى مدرسة الحسن البصرى ، مدرسة الروح فى البصرة ، لئرى كيف تتجدد آراء الحسن ، وكيف يصدر التلاميذ عنه ، بعمق ، وإتقان . . . وكيف تتطور العبادة أو الزهد إلى ملامح صوفية . لا أقول : إنها ملامح صوفية كاملة ، وإنما كانت المدرسة تقرب من وضع التصوف أو السير بالمسلمين فى طريقه :

كانت البصرة تعج بالأفكار الروحية التى قذف بها الحسن فى أعماقها وتمتلئ بالأشخاص الذين حملوا - عن الحسن - هذه الأفكار ، وكل يلونها بمزاجه الخاص . كان هناك القصاص (١) ، كما كان هناك معبرو الرؤيا والأحلام (٢) ، كما كان هناك القراء والوعاظ . ولكن كان هناك نوع من العبادة ، غلبت عليهم العبادة الخالصة ، واعتبروا من رجال السند الصوفى . . .

١- فرقد بن يعقوب السبخى : الزاهد الأرمنى المسلم :

كانت أفكار الحسن البصرى تنتضح وتنمو لدى عابدين كبار عباد المسلمين هو فرقد بن يعقوب السبخى . وقد كان للعلامة العراقى الدكتور كامل الشيبى فضل تحقيق اسمه الحقيقى - السبخى لا السنجى ، كما كان له فضل تتبع هجرة فرقد من الكوفة إلى البصرة (٣) ولقد بلغ فرقد السبخى فى طريق الحياة الروحية مبلغاً يفوق أستاذه الكبير ، فقد لبس الصوف - كما رأينا ، واعتبره الحسن البصرى نفسه من أصحاب الأکسية ، بل اعتبره من «مجانين العبادة» ودخل فى أعماق التصوف ، بحيث يقول عنه ياقوت إنه من أصحاب الرقائق (٤) . « وقد وصفه الذهبى فى طبقات المحدثين . وذكر

(١) من أهم القصاص فى هذا العصر - بكر بن عبد الله المزنى . وقد كان عربياً خالصاً . ويزيد بن أبان الرقاشى . وكان فارسياً .

(٢) من أهم معبرى الرؤيا وكان صديقاً للحسن البصرى . محمد بن سيرين .

(٣) الدكتور كامل مصطفى الشيبى الصلة ج ١ ص ٣٠١ - ٣٠٣ .

(٤) ياقوت : معجم الأديباء . ج ١٦ ص ٩٧ .

أنه أحد زهاد البصرة ، روى عن سعيد بن جبير ومرة الطيب وأنه من سبيخة الكوفة لا من سبيخة البصرة ، غير أن علماء نقد الرجال يجرحونه (١) ويذكر ابن الجوزي أنه أسند عن أنس بن مالك وسمع من كبار التابعين وشغله التعب عن حفظ الحديث ولذلك يعرض النقلة عن حديثه (٢) .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن فرقدًا كان حائكًا ومن نصارى أرمينية ولا نعرف الكثير عن سبب وصوله إلى الكوفة ، ولا عن أسرته . وانتقل فرقد إلى سبيخة البصرة . ثم علم بمقام الحسن ، فذهب إليه . ويقص لنا الذهبي قصة دخوله على الحسن . فقد دخل فرقد عليه . فقال : السلام عليك يا أبا سعيد : فقال الحسن : من هذا ؟ قالوا : فرقد قال : من فرقد ؟ قالوا : إنسان يكون بالسبيخة . قال : يا فرقد : ما تقول فيمن يأكل الخبيص . قال : لا أحبه ، ولا أحب من يحبه . ولا أتواه . فقال الحسن : أترونه مجنوناً (٣) ، وقد صاحب فرقد الحسن ، وكان يخرج معه في غدوه ورواحه ، وكان يلبس الصوف - كما قلت ، ويمتنع عن الطعام الفاخر . وكان الحسن البصري يسخر منه ويداعبه . وكان فرقد على علم بالتوراة والإنجيل ، يستعير منها ، ويضمن أحاديثه الكثير من آياتها . ولعل مرد هذا إلى مسيحيته الأولى ، وقد وضع فرقد السبخي آراءه - إما في صورة أحاديث إسرائيلية أو مسيحية . والسبب في هذا انتشار القصص في ذلك العهد ، وتضمنهم للإسرائيليات في قصصهم ومواعظهم ، واستخدامهم هذه الإسرائيليات لتدعيم الأحاديث النبوية . ولكن الدكتور كامل الشبيبي يرى أن فرقدًا كان يتحرز عن التعبير الذاتي المباشر إما لخوف أولئك في قدرته على التعبير وأنه لذلك فضل التعبير غير المباشر ، فاستشهد لكل حالة أمضته بنص من النصوص المقدسة القديمة (٤) . وكان أهم ما ألقي به فرقد السبخي في المجتمع البصري ، هي فكرة الجوع ، والجوع كان سمة «للجوعية» في الشام . فقد عرف العباد والزهاد في أول أمرهم في الشام بالجوعية . ولكن فرقدًا السبخي يتكلم عن الجوع في البصرة ، وقد رأينا كراهيته للطعام الجيد وإعلانه لهذه الكراهية في حضرة أستاذه الحسن البصري ، وامتناعه عن مشاركة أستاذه الطعام في بعض الولائم التي دعى إليها الاثنان . كان يقول «قرأت في التوراة : أمهات الخطايا ثلاث : أول ذنب عصي الله به : الكبر والحسد والحرص . فاستل من هؤلاء الثلاث سنا ، فصاروا تسعة : الشبع والنوم والراحة وحب المال ، وحب الجوع ، وحب الرياضة» وكان الناس يقولون الجوع كافر . ولكن فرقدًا السبخي يصرخ الشبع أبو الكفر ، ويرى أن «البطن» هو «أب الخطايا» «ويل لذي البطن من بطنه ، إن أضاعه ضعف ، وإن

(١) الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٣٤٥ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٤٦ .

(٣) الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٣٤٦ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٣ ص ٤٥ .

أشبهه نقل (١) « ولعلنا نرى من هذا أنه كان أوصل بالجوعية الشاميين من أهل البصرة . ولكننا نراه في الوقت نفسه يحشى الخطايا والذنوب ، خشية « الخائفين » البصريين ، فيقول « ما انتبهت من نومي ، إلا خفت أن أكون قد مسخت » وهو هنا يستخدم فكرة « المسخ » وهي فكرة قرآنية ، تتصل بمسح بنى إسرائيل قرده خاسئين . ثم نراه يكره الغنى ومجالسة الأغنياء ، وقد أعلن هذا من قبل أمام شيخه الحسن البصرى حين ذكر كراهيته للطعام الدسم - ونسب كراهيته للطعام لآية من التوراة « قرأت في التوراة : من أصبح حزيناً على الدنيا ، أصبح ساخطاً على ربه ، ومن جالس غنياً ، فتضع له ، ذهب له ثلثا دينه ، ومن أصابته مصيبة ، فشكاها إلى الناس ، فكأنها يشكوره عز وجل » . وقد لاحظ الدكتور كامل الشيبى أن هذا النص روى عن النبي وعلى بن أبى طالب ، وعجب من أن يفعل فرقد السبخى هذا ، ولاحظ أن فرقد السبخى لم يكن ذا صلة بالأحداث السياسية والحربية والعذاب الروحي الذي كان يستغرقان الكوفة ، فكان جل حديثه عن الآفات الاجتماعية في البصرة (٢) . « ويبدو أن هذا لا يصور الواقع ؛ كان فرقد السبخى يغلف الأحاديث عن محمد ﷺ وعلى في صورة آيات عن التوراة أو الإنجيل ، وكان يجتمع بعباد الكوفة ، يأتون إليه ، ويقضون معه أوقاتاً طويلة (٣) وكان ينقد الحكام ، ويعرض مظالمهم في صورة غير مباشرة . وها هو ذا يقول : « إن ملوك بنى إسرائيل كانوا يقتلون قراءهم على الدين ، وإن ملوككم يقتلونكم على الدنيا ، فدعوهم والدنيا (٤) » هذه دعوة متضمنة تعرض بهؤلاء الحكام من بنى أمية أو تطلب من الناس اتقاءهم . فكأن فرقد كان يدعو - وكما فعل أستاذه الحسن البصرى - إلى نوع من التقية ، وقد أمضه مصرع أحد شيوخه سعيد بن جبير على يد الحجاج ، وألم له أشد الألم .

ولم يكن فرقد بن يعقوب السبخى بغافل عن دعوة الناس بل كان يعظ المجاميع - كما كان يفعل أستاذه ، فكان يقول - ويضع كلامه على لسان عيسى بن مريم « طوبى للناطق في آذان قومه يسمعون كلامه ، وأنه ما تصدق رجل بصدقة أعظم أجراً عند الله تعالى ، من موعظة قوم بصيرون بها إلى الجنة » .

ودعا الناس إلى عصم أنفسهم عن الذنوب ، لماذا فعلوها ، لم يعودون إليها : ولكن الحياة أقوى منه بشرورها ونيتها . . . وتراوده الأحلام فيستيقظ ويقول « إني رأيت والله في المنام ، كأن منادياً ينادى

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٤٦ . وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٩٦ .

(٢) الدكتور كامل الشيبى : الصلة ج ١ ص ٣٥٢ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٤٥ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٩٥ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٤٦ ، ٤٧ وابن الجوزى ج ٣ ص ١٩٦ .

من السماء : يا أشباه اليهود ، كونوا على حياء من الله عز وجل « ويراوده نفس الحلم مراراً ، وقد راعه أصحاب القصور يرحون في الدنيا ، وكأنها لهم باقية ولا شكر على النعمة ، ولا صبر عند الابتلاء » إني رأيت في المنام ، كأن منادياً ينادى من السماء : يا أصحاب القصور ، يا أصحاب القصور ، يا أشباه اليهود . إن أعطيتكم لم تشكروا . وإن ابتليتكم لم تصبروا ، ليس فيكم خير بعد العذاب .
وأهمه تكالب الناس على فاخر الثياب ، ولعل هذا ما دعاه إلى لبس الصوف . فكان يدعوهم إلى نبد الثمين منه ، إنهم لبسوا ثياب الفراغ ، ثياب الراحة قبل العمل . ولا بد من العمل - من السير والسلوك ، حتى يصل الإنسان إلى بهاء الثوب الإلهي . ويبدو أن فرقداً اختص بلبس الصوف ، فقد دعى هو وشيخه الحسن إلى طعام ، وكان على فرقدة جبة صوف فقال له : يا فرقدة : لو شهدت الموقف لحرقت ثيابك ، مما ترى من عفو الله ، وكأن الحسن - يعود هنا - إلى الإيمان « بالعفو » الإلهي والرحمة الإلهية ؛ وهو الذي طالما هدّد الناس - لفاحش أعمالهم ونكسة أخلاقهم بالعذاب الإلهي . . . والنار المحرقة .

وأخيراً يردد فرقدة السبخي هذا الشيخ الكبير ، الآتي من أعماق أرمينية إلى شيخه بالبصرة ، « الغريب ، من ليس له حبيب (١) » فهل كان هو حقاً في دار غربة ، غريباً عن وطنه . أم أراد أنه غريب في هذه الدنيا ، وأن حبيبه هناك في عالم آخر تشوق له . أم أنه لم يكن غريباً على الإطلاق ، لأن له حبيباً . . . هو ذات الله .

ومن العجب أن فرقداً السبخي حدث بأحاديث غير كثيرة ، ولكننا نرى أغلبها ، على لسان الأنبياء ، كأن الرجل قد شغل فعلاً بتراث ما قبل الإسلام ومن الأمثلة على هذا الحديثان الآتيان :

١ - قال رسول الله ﷺ : أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء : قل لعبادي الصديقين ، لا يغفروا لي ، فإني إن أقم عليهم قسطنى - أو عدلى - أعدبهم غير ظالم لهم . وقل لعبادي المذنبين لا يأسوا من رحمتي ، فإني لا يكبر على ذنب أغفره لهم .

٢ - قال رسول الله ﷺ : أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء : ما بال عبادي يدخلون بيوتى - يعنى المساجد - بقلوب غير طاهرة ، وأيد غير نقية ، أبى يغفرون ، أو إياى يخادعون . وعزنى وجلالى وعلوى فى ارتفاعى ، لأبتليهم ببليية ، أترك الحلِيم فيهم حيران ، لا ينجو منهم إلا من دعا كدعاء الغريق .

ولكننا نرى الأحاديث الأخرى التى يروها ، أحاديث إسلامية خالصة ، بعضها خاص بالعبادات

(١) أبو نعيم : ج ٢ ص ٤٦ ، ٤٧ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٩٦ .

وبعضها خاص بالمغيبات الإسلامية (١) ، كان فرقد السبخي يمثل تراث عصره ، من ثقافة إسلامية ، وتدين إسلامي عبادي ، كما كان على صلة عميقة بالتراث الأجنبي - وهو المعروف بالإسرائيليات ، كل هذا بالإضافة إلى مزاجه غير العربي .

وقد احتل فرقد السبخي مكاناً في السلاسل الصوفية . وقد ذكر الدكتور الشيبى أنه من « الغريب أن فرقداً صار من القلائل النادرين الذين اعتبروا عند المتصوفة من أصول التصوف ودخلوا سلسله » (٢) . ويبدو أن فرقداً - قد وضع في هذه السلاسل لأسباب متعددة . كان أقرب التلاميذ إلى الشيخ ، الحسن البصرى ، ويبدو أنه لازمه أكثر من غيره من تلامذته . ثم تميزه بلبس الصوف ، وإصراره على لبسه ، بالرغم من نهى الحسن له . يذكر ابن الجوزى أن فرقداً أتى الحسن ، فأخذ الحسن بكسائه ، فذه إليه وقال : يا فريقد ، يا ابن أم فريقد : إن البر ليس في الكساء ، وإنما البر ما قر في الصدر وصدقه العمل . ويذكر ابن الجوزى أيضاً أن حماد بن سلمة قدم البصرة ، فجاءه فرقد وعليه ثياب صوف فقال له حماد : دع عنك نصرانيتك هذه (٣) . إن هذا الإصرار على لبس الصوف - لاشك جعل الصوفية فيما بعد يضعون فرقداً في سلاسلهم ، وبخاصة أنهم اتخذوا الصوف شعاراً .

لقد أدرك الصوفية - فيما بعد - العظمة الروحية لهذا الأرمي الغريب . إنه هاجر من الكوفة - في ظروف لم نعرفها بعد كما لا نعرف شيئاً عن حياته الأولى وعن أبيه يعقوب وعن أصله ومنشأه ، والتزم الشيخ الكبير . وكان الشيخ موزعاً بين الفقه والمعاملات والعبادات الصوفية ، وكان قاضياً وقارئاً وواعظاً ، ثم كان غارقاً في الحياة العقلية الكلامية متردداً بين الجبر والاختيار . بل كان - فيما يقول الدكتور إحسان عباس بحق - « فيما دق من حقائق القدم امرءاً مغلوباً على أمره ظاهري الفهم للمسائل الدقيقة » بل إن إحسان عباس - ينسب عن الحسن كل الأقوال المتعلقة بالرؤية أو الحب أو الرجاء مثل « لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم يوم القيامة لما تواروا ، وشئ « الرجاء والخوف مطيتا المؤمن » ومثل الحب سكران لا يفتيق إلا عند مشاهدة محبه » يرى الدكتور إحسان عباس أن كل هذه الأقوال قد نخلت للشيخ لكى يوضع في مرتبة الإمام الصوفى وليأخذ مكانه في السلسلة الصوفية (٤) ، هذا مع أنه كان ينكر على فرقد السبخي لبسه للصوف ، ويسخر منه .

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٣ ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) الدكتور الشيبى : الصلة ج ١ ص ٣٠٣ .

(٣) ابن الجوزى : تليس إبليس . ص ١٩٥ .

(٤) الدكتور إحسان عباس : الحسن البصرى ص ١٢ - ١٣ .

كان فرقد السبخى يلبس «الصوف» غير آبه لكل نقد وبخاصة نقد أستاذه الحسن ، نائياً عن الفقه والمعاملات ، هاجراً للمأكل المنى وللمشرب البارد ، مطأطياً الرأس للإرادة الإلهية وحدها مستهلكاً في الله ، ممثلاً للبهاء الصوفي في البصرة متسامياً في حياة الروح عن شيخه الكبير المتعدد النواحي .

٢ - حبيب العجمي : الصوفي الفارسي : قطب الغوث :

أما الاسم الثاني الذي يظهر في سلاسل الصوفية ، متصلاً بالشيخ الكبير الحسن البصري ، وممثلاً أيضاً لجوهرة التصوف في البصرة ، فهو حبيب العجمي أو حبيب الفارسي . وبينما كان فرقد السبخى جوهرة ثينة مخفية في سبخة البصرة ، ويقف من السيد الكبير موقف التلميذ أبداً ، سزى حبيباً العجمي يقف من السيد الكبير ، موقف الأستاذ أبداً ، معلناً للبهاء الإلهي . وهو في مقام القطبانية الكبرى ، مستجاب الدعوة ، محققاً لفكرة الغوثية التي شغلت الصوفية فيما بعد - سنوات طويلة . أما اسمه الكامل فهو حبيب بن محمد العجمي أو الفارسي وكنيته أبو محمد ^(١) ولا نعرف بعد شيئاً عن أسرته أو عن نشأته الأولى ، سوى ما تذكره المصادر من نسبه إلى الفرس أو العجم وقد امتلأت أخباره بعباراته الفارسية ، وأنه من ساكني البصرة وأنه «بصري من الزهاد» بل يذهب الذهبي مؤرخ الإسلام العظيم إلى أنه «حبيب العجمي زاهد البصرة في زمانه» ^(٢) ثم تجمع المصادر أيضاً أنه كان من كبار تجار البصرة ، وسراتها . وتميز ابن عساكر برواية أنه كان «رجلاً تاجراً يغير الدراهم» أي أنه كان من صياقة البصرة ، وكان ينهم «بأكل الربا» ^(٣) .

ولم يكن الرجل من القراء «أو من أهل العبادة» فكيف اتصل بالحسن البصري . تذهب المصادر إلى أن الرجل كان يأتي إلى المسجد ويجلس مجلسه «الذي يأتيه فيه أهل الدنيا والتجار» بينما الحسن البصري يتخذ مجلسه الوعظي في المسجد . وكان حبيب الفارسي لا يأبه بالحلقة ، وغير منته به إلى الحسن إلى أن حدث يوماً أن التفت إلى الحسن وسأل بعض أصدقائه بالفارسية : أين يرهى درайд دايد حكويد «أى ما يفعل هذا» فأجابه أصدقاؤه «والله : يا أبا محمد : يذكر الجنة ويرغب فيها ويزهّد في الدنيا» فوقر ذلك في قلبه وقال بالفارسية أيضاً : اذهبوا بنا إليه . فأتاه . فقال أصدقاء الحسن له : يا أبا سعيد : هذا أبو محمد حبيب قد أقبل إليك فعظه» وسأل حبيب بالفارسية : أين همي كوى

(١) ابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٢٩ وابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢٢٦ والجاحظ : البيان النبين ج ١ ص ٢٣٢ وأبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٤٩ .

(٢) النعمي : ميزان الاعتدال ج ١ ص ٤٥٧ .

(٣) ابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٢٩ .

جكوى . فقال الحسن - ولم يكن يعرف الفارسية - «إيش يقول ؟ فقالوا له «هذا الذى يقول : إيش يقول» فأقبل عليه الحسن بمواعظه الخلابة العميقة ، يذكر الجنة ونعيمها ويرغبه فى الخير ، ويخوفه بالنار ويزهده فى الشر - فقال حبيب : أين كوى : فقال الحسن : أنا ضامن لك على الله ذلك (١) .

ولكن ابن عساكر يقدم لنا رواية أخرى عن سبب إقباله على العبادة وتزهدده : فيذكر أنه كان رجلاً تاجراً يغير الدراهم ، فر ذات يوم بصبيان يلعبون ، فتصايح الأطفال «قد جاء آكل الربا» فنكس الرجل رأسه . وقال : يا رب أفشيت سرى إلى الصبيان . فرجع إلى منزله ، ولبس «مدرعة من صوف» وغل يده وجمع ماله ووضع بين يديه . وجعل يقول «يا رب إني أشتري نفسي منك بهذا المال ، فاعتنى» وبات ليلته ، وفى الصباح تصدق بالمال كله ، وأخذ فى العبادة : فلم ير إلا صائماً أو قائماً أو ذاكرةً أو مصلياً . وتمضى الرواية فتقول : إنه مر ذات يوم بنفس الصبية ، فقال : بعضهم لبعض «اسكتوا . لقد جاء حبيب العابد» فبكى وقال «يا رب أنت محمد مرة ، وتذم مرة ، فكل من عندك (٢)» .

وسواء أصبحت هذه الرواية أم تلك ، فإن الرجل تخلى عن دنياه وهجر الغنى والترف ، وأقبل على الحسن البصرى . ومنذ ذلك اليوم ، وقد أصبح الرجل فى مقام الخائفين بحيث يذكر صاحب الحلية «كان حبيب أبو محمد رقيقاً ، من أكثر الناس بكاء ، فبكى ذات ليلة» فقالت له زوجته عمرة بالفارسية ، وقد كانت هى فارسية أيضاً «لم تبكى يا أبا محمد» فقال لها حبيب بالفارسية «دعنى فإنى أريد أن أسلك طريقاً لم أسلكه من قبل (٣)» وصار يمول العباد ، ينفق عليهم ، كما ينفق على الناس ، بل يستقرض المال أحياناً لهذه الغاية . وقد امتلأت كتب طبقات الصوفية بأخبار إنفاقه على الفقراء والمعوزين والعباد . فأصبح «باب الحاجات» يأتى إليه الناس من كل فج ، وأخذ الرجل يعنى بالناس ويرى آلامهم . فبرى «بعض الجلاوزة» حين مر الأمير يطلبون من الناس أن يفسحوا الطريق ، فلم تستطع عجوز لا تقدر أن تمشى ، فضربها الشرطى بسوطه . فدعا عليه حبيب «اللهم اقطع يده» - فاتهم الشرطى بالسرقة بعد أيام - وقطعت يده (٤) وأصبح الرجل «مستجاب الدعوة» و«صاحب الكرامات» . وأقبل عليه المرضى ، فكان يقوم واقفاً - وهو فى مقام التذلل - ويعلق المصحف فى

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

وابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٣٠ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٣٦ .

(٢) ابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٣٠ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ٥٤ .

(٤) ابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٣١ .

عنه ، ويخاطب الله « يا خدا حبيب رسوا مياش » أى يا الهى : لا تسود وجه حبيب » ثم يدعو « اللهم عاقه حتى ينصرف » وكان يشق بالدعاء من البرص وبنبت شعر الأطفال وبشترى للمنفقين المحسنين تصور الجنة (١) . . . فأصبح حبيب « غوث البصرة » . . . ومضى فى مقام التمكين الأخير ، اختراق حجب المكان والزمان « فكان يرى بالبصرة يوم التروية ، ويرى بعرفة عشية عرفة (٢) فأصبح حبيب « صاحب الخطوة » وهى التى ستكون فيها بعد سمة الأقطاب من الصوفية .

وعلا حبيب العجمى فى مقام الولاية حتى على أستاذه فى موقف تاريخى من أدق المواقف . فقد طلب الحجاج الحسن وأرسل فى أثره ، وهرب الحسن البصرى إلى بيت حبيب وقال له « يا أبا محمد . احفظنى ، الشرط على أنرى » فقال له حبيب « استحييت لك يا أبا سعيد . ليس بينك وبين ربك الثقة - ما تدعو فيسترك من هؤلاء ، ادخل البيت » فدخل الشرط على أثره وسألوا حبيباً « يا أبا محمد . دخل الحسن ههنا ؟ » فقال يئى فادخلوا (٣) . ويردد الهجويزى الرواية على صورة أوسع إن الشرط عادوا إلى أبى محمد حبيب واتهموه بالكذب عليهم وخديعتهم ؛ فأقسم أنه ما ذكر لهم إلا حقاً ، فعاودوا البحث عن الحسن ثلاث مرات ، فلم يجدوه ، فانصرفوا . وخرج الحسن - المرتاع الخائف المتردد - يقول لتلميذه الكبير « أنا أعلم أن الله سترى ببركتك ، ولكن لم أخبرتهم أنى هنا . فقال له حبيب : إنهم لم يعموا عنك ببركتى ، ولكن ببركة الصدق (٤) وعاد الشرطة للحجاج فأخبروه بما حصل فقال : كان فى بيته ، والله طمس على عيونكم فلم تروه (٥) » . وكان الحجاج إذن أبقن أن حبيباً قد وصل إلى مقام القطبانية المحمدية الكبرى . وسواء أكانت الرواية حقاً أم من وضع الصوفية ، فإنها تضع الحسن فى مقام أدنى من مقام حبيب ، وترفع هذا الأخير إلى قمة الحياة الصوفية . وقد علق الدكتور إحسان عباس على هذا فقال « إن الحسن البصرى لجأ إلى حبيب لجوء الرجل الدنيوى إلى صاحب الحقيقة (٦) » .

ويبدو أن حبيباً قد عاش الفترة الأولى من عبادته فى مقام الخوف ، بحيث يذكر العابد البصرى

(١) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ١٥٢ وابن عساکر : تاريخ ج ٤ ص ٣١ ، ٣٢ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ١٥٤ والذهبي : ميزان ج ١ ص ٤٥٧ .

وإبن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٣٨ .

(٣) ابن عساکر : تهذيب . ج ٤ ص ٣٠ .

(٤) الهجويزى : كشف المحجوب ص ٨٨ وكان لإحسان عباس فضل توجيه نظري إلى هذا النص . انظر كتابه الحسن البصرى

ص ١١ .

(٥) ابن عساکر : تاريخ ج ٤ ص ٣٠ .

(٦) الدكتور إحسان عباس : الحسن البصرى ص ١٢ .

أشعث الحداني أنه انطلق إلى حبيب - وذلك عند ارتفاع النهار ، هو وبمجموعة من أصحابه ، فخرج إليهم ، وأخذوا يبكون حتى حضر الظهر ، ثم صلوا وتذكروا الله ، فأخذوا في البكاء ، حتى حضر العصر (١) . ولكنه ما يلبث في طريق العبادة أن ينسى هذا . . . ويدخل في مقام الأنس : فكان يخلو في بيته ويقول « من لم تفر عينه بك ، فلا قوت ، ومن لم يأنس إليك ، فلا أنس (٢) » وكان يقول « لا قرة عين لمن لا تفر عينه بك ، ولا فرح لمن لا يفرح بك ، وعزتك إنك لتعلم أني أحبك » ويقول : « الأواه الذي قلبه معلق بالله (٣) . . . وكان دعاؤه يحمل معاني المحبة فيصيح « سبحانك وحنانك . . . خلقت فسويت ، وقدرت فهديت ، وأعطيت فأغنيت وأقنيت وعافيت . . . أنت الكريم الأعلى ، وأنت جزيل العطاء ، وأنت أهل النعماء ، وأنت ولي الحسنات . . . وأنت خليل إبراهيم . . . سجد وجهي لوجهك الكريم (٤) . وكانت حياته قرآنية وكان يقول : أفتح جونة المسك (وعني القرآن) وهات الترياق المحرب » يعني الدعاء وبهذا كان يفتح الطريق للمحبة الإلهية عند الصوفية فيما بعد ، بل نجد في عبادته زاداً علوياً لرابعة العدوية .

وكان يكره القراء ، ويعتبرهم لعبة الشيطان . ويطلب منهم ألا يقعدوا فارغين ، وأن يشغلوا أنفسهم بالموت (٥) .

وفي مقام الذلة والمسكنة ذهب إلى الله مقبوض اليد ، كما يقص لنا العابد المشهور عبد الواحد بن زيد ، فيخبرنا بأن حبيباً جزع عند الموت جزعاً شديداً - وكان يقول بالفارسية أريد أن أسافر سرفاً ما سافرت قط . أريد أن أزور سيدي ومولاي ، وما رأيته قط . أريد أن أشرف على أهوال ما شاهدت مثلها قط . أريد أن أدخل تحت التراب ، فأبقى تحته إلى يوم القيامة . ثم أوقف بين يدي الله ، فأخاف أن يقول لي يا حبيب : هات تسيحة واحدة سبحتني في ستين سنة ، لم يظفر بك الشيطان فيها بشيء ، فإذا أقول . وليس لي . حيلة أقول : يا رب قد أتيتك مقبوض اليدين إلى عنقي » ويعلق على هذا العابد المشهور عبد الواحد بن زيد « هذا عبد الله ستين سنة مشتغلاً به ، ولم يشتغل من الدنيا بشيء قط ، فأى شيء حالنا . واغوثاه بالله (٦) بل إن الصوفية من بعده أجمعوا على أنهم لم يروا أحداً قط

(١) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٣٩ وابن عساکر : تاريخ ج ٤ ص ٤٣ .

(٣) أبو نعیم : الحلیة ج ٦ ص ١٥٤ وابن عساکر : تاريخ ج ٤ ص ٢٩ ، ٣٣ .

ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢٤٠ ابن عساکر : تاريخ ج ٤ ص ٣٠ .

وأبو نعیم : حلیة ج ٦ ص ١٥٤ .

(٤) ابن عساکر : تاريخ ج ٤ ص ٣٣ .

(٥) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢٥١ .

أصدق يقيناً من حبيب العجمي ، بحيث يذكر عبد الله بن البنا - أحد عباد البصرة الكبار . « ما رأيت أعبد من الحسن ولا أروع من ابن سيرين ، ولا أزهد من مالك بن دينار . ولا أخشع لله تعالى من محمد بن واسع ولا أصدق يقيناً من حبيب (١) .

تلك نماذج من حياة حبيب العجمي . جعلته فيما بعد عموداً من أعمدة التصوف ، وأثر نموذج حياته في العباد والزهاد والصوفية من بعده - اعتبره عبد الله بن البنا أصدق من رأى يقيناً ، وقال عبد الواحد بن زيد عنه « كان في حبيب خصلتان من الأنبياء : النصيحة والرحمة (٢) » وذكر عنه أبو جهيز مسعود الضرير - من كبار عباد البصرة إنه لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، وطلب منه أن يسأل الله أن يحق ذلك (٣) واعتبره أصحاب الحسن جميعاً زين مجلسهم فكانوا لا يذهبون لمكان أوزيارة بدونه (٤) وذكره أبو سليمان الداراني كثيراً (٥) .

أما عن تمكنه في رواية الحديث ، فمن العجب حقاً أننا لا نجد طعناً عليه . فقد ذكره الإمام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم في كتابه الجرح والتعديل ، ولم يجرحه . بل ذكر أنه روى عن الحسن وأبي تيممة المهجيمي وروى عنه حماد بن سلمة وجعفر بن سليمان ويزيد بن يزيد الخثمي (٦) بل إن الذهبي يبرئه من الكذب ويذكر أن البخاري روى له في كتاب الأدب ويقول « وما علمت فيه جرحاً ، وإنما ذكرته هنا لثلاً يلحق بالزهاد الذين يهمنون في الحديث » وإن كان يقول في موضع آخر « إن غالب ما عنده الحكايات » (٧) .

ويذكر ابن الجوزي عنه أن حبيباً سافر إلى الشام وقابل الفرزدق وروى له عن أبي هريرة « أما أنه إن طالت بك حياة ، ستلقى أقواماً يقولون لا توبة لك ، فلا تقطع رجلك من الله (٨) ، أما ابن عساكر فبرويه على الصورة الآتية : إنه سيأتيك قوم يؤسوك من رحمة الله ، فلا تيأس (٩) ولكن ابن الجوزي يذكر أن الذي أسند عن الحسن وابن سيرين هو حبيب المعلم وأن حكاية الفرزدق هذه تنسب

- (١) ابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٢٠ .
- (٢) نفس المصدر السابق ج ٤ ص ٣٠ .
- (٣) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢٥١ .
- (٤) نفس المصدر ج ٣ ص ٦٩ ، ج ٤ ص ٩ .
- (٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٣٧ وابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٣٣ .
- (٦) أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم ، محمد بن إدريس المنذر التميمي الخنطلي (المتوفى في عام ٣٢٧ هـ) الجرح والتعديل : القسم الثاني من المجلد الأول ص ١١٢ .
- (٧) الذهبي : ميزان الاعتدال ج ١ ص ٤٥٧ .
- (٨) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٥٥ .
- (٩) ابن عساكر : تاريخ ج ٤ ص ٢٩ .

إليه . غير أن ابن عساكر يروى له عن شهر باز بن حوشب عن أبي ذر أنه قال : إن الله تبارك وتعالى يقول : يا جبريل : انسخ من قلب عبدى المؤمن الحلاوة التي كان يجدها ، فيصير العبد والمأ طالباً الذي كان يعهد من نفسه ، نزلت به مصييته ، لم يتزل به مثلها قط . فإذا نظر الله تعالى إليه على تلك الحالة - قال يا جبريل : رد إلى قلب عبدى ما أخذت به ، فقد ابتليته ، فوجدته صادقاً ، وسأمدته من قبلي بزيادة ، وإذا كان عبداً كذاباً ، لم يكثر ولم يبال (١) .

* * *

لم تصب حياة الرجل إذن شائبة ، دخل باب العبادة ، ووصل أوجها ، ولم يشغل بفقعه ، وحين حدث ، لم يهم - كما قال الذهبي - ناقد الرجال المشهور ، لم يهم وابتدع كما كان يفعل الزهاد فيما بعد ، يضعون الحديث لتبرير زهدهم .

أما أن الصوفية قد وضعوه في سلاسلهم ، ولم يضعوا - غيره من تلامذة الحسن ، اللهم إلا فرقداً السبخي - فلاسباب متعددة - إنه ليس الصوف ، كما رأينا « ليس مدرعة من شعر » و« غل يده » فكان يمثل الصوفية - فيما بعد - في لباسهم ، وفي موقفهم المستسلم الجبري تحت مشيئة الله المطلقة ، وأمره النافذ . . . فكان « مغلول اليد » وكذلك ذهب إلى الله ، وأعلن ساعة موته ، أنه ذاهب إليه هكذا ، « أسير الله » حيث الفكك ، بيد الله بيد القدرة الإلهية . وأعلن حبيب مذهبه الجبري - يارب أنت محمد مرة وتدم مرة ، فكل من عندك موقف الجبر المطلق ، بينما كان أستاذه يتردد بين الجبر والاختيار - بين خصوم القدر وبين أصحابه . وأخيراً . . . كان الحسن البصري خائفاً ، حين أتى إليه يوم هربه من شرطة الحجاج ، وكان هوثاباً كالطود في مقام « الصدق » وفي مقام اليقين ، متمكناً ، معلناً للوجود . . . أنه الأشعث الأغبر ، في أطواره الصوفية ، لو سأل الله لأبره ، ولقد سأل . . . وأجاب الله ، سمع الله وبصره ويده . . . لا عجب بعد ذلك أن وضعه الصوفية في سلاسلهم - بعد الشيخ - رابطين بينه وبين معروف الكرخي ، الذي سيكون هو أيضاً بعد في بغداد - باب الحوائج ، أو قطب الغوث ، وكما حجب حبيب العجمي ، بالحسن البصري ، فكان هذا الأخير ، الشيخ ، وذلك . . . التلميذ ، كان معروف الكرخي تلميذاً لعلي الرضا وكان الإمام علي الرضا يحجب معروفًا . كان الحسن البصري والإمام علي الرضا في نظر التصوف الحقيقيين الشيخين الظاهرين ، أهل الصلاح ، أهل العبادة ، أهل التقوى ، بينما كان حبيب العجمي ومعروف الكرخي . . . الإمامان الباطنيان ، أهل التصوف ، أصحاب الجوهرة الخفية ، الحقيقة . . . المطلب العسير لكل سالك .

٣- شهر بن حوشب وعمرة زوجة حبيب :

وقد ظهرت في حياة حبيب العجمي شخصيتان هامتان أحدهما زوجته عمرة والأخرى شهر بن حوشب .

وكما ارتبطت بصلة بن أشيم زوجه معاذة العدوية ، ارتبطت بحبيب العجمي زوجه عمرة الفارسية . كانت تظهر في أكثر مواقف حياته . عاشت معه عيشة الثروة والترف ، فلما دخل الرجل طريق العبادة ، تعبدت أيضاً ، غير شاكية ولا متبرمة ، تقوم بنفسها على خدمة العباد من أصحابه ، فإذا جن الليل ، تعبدت معه . . . وإذا بالروح العبادي ينبثق فيها على صورة لم تعرفها البصرة في مثيلاتها من الزاهدات .

كانت تقوم الليالي المظلمات كلها ، تقوم ، وحبيب أحياناً نائم ، فتقول برفق وقت السحر عاتبة : قم يا رجل . قد ذهب الليل ، وجاء النهار ، وانفض كوكب الملأ الأعلى ، ومارت قوافل الصالحين ، وأنت متأخر لا تدركهم ، وأحياناً تردد له « قوافل الصالحين قد سارت قدامنا ، ونحن بقينا » وكانت عمرة تنسى أوصاب جسدها ، متجهة إلى الله ، منكفئة ، على نبضات القلب . وكان الوجد يصيب عينيها فلا تشكى ، ويسألها النامس . كيف تجدينك . فكانت تقول « ووجد قلبي أشد من وجد عيني (١) » .

أما الشخصية الثانية : فهي شخصية : شهر بن حوشب ، (المتوفى عام ١١١ هـ) أحد قراء حمص النساك - فيما يقول الذهبي ، وقد روى حبيب عنه ، وقيل إن حبيباً سافر إلى الشام وقابله هناك . وكان شهر بن حوشب - فيما يبدو تلميذاً لأبي ذر الغفاري ، كما روى عن بلال ، وعن تلك الشخصية الغامضة التي لم تدرس بعد وهي شخصية تميم الداري . وقد عاش شهر بن حوشب بحمص ، ولكن يقال : إنه وفد على العراق وحدث به (٢) . وأياً ما كان الأمر ، فإن صلوات شهر بن حوشب بأبي ذر ، أثرت في أعماق حبيب . ولعل خروجه عن ماله وإنفاقه على المسلمين إنما كان صدى لدعوة أبي ذر التي وصلته عن طريق شهر بن حوشب ، على أن آثار ابن حوشب إنما ينبغي أن تلتبس في مدرسة الشام ، حيث عاش وحدث وتعبد .

(١) الشعراي : طبقات ج ١ ص ٥٧ ، وابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٢٣ .

(٢) الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٢٨٣ ، ٤٨٤ .

وأبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٦٣ .

الفصل الخامس

الزهاد الوعاظ : الوعظ العبادى أو الصوفى فى البصرة

كانت معالم الشيخ الكبير الحسن البصرى تنمو وتتضخم بين الكثير من تلامذته ، بقدر ما كان ينمو الفساد وتعظم الخطيئة ويزداد الغنى الحرام فى البصرة ، وكان هؤلاء التلاميذ يجأرون بأصواتهم فى حلقات المساجد ، وفى الطرقات وفى الجبانات ، كان هؤلاء من القراء بلا شك ، ولكن تميزوا بالوعظ العبادى ، وخلال هذا الوعظ ، بدأت تتضح أيضاً معالم صوفية ، أو خطرات تدخل فى صميم التصوف . أو بمعنى أدق إن معالم التصوف الساذج الذى انتصح بلا شك فى شيخ « الصالحين » الحسن البصرى ، بدأ يتعمق لدى تلامذته العباد ، فقرب بينهم ومن تلاهم من صوفية . وقد تنبه الصوفية فيما بعد - إلى سمو الروح العبادية لدى تلميذين من تلامذة الرجل الكبير عن الرجل الكبير نفسه ، وهذان التلميذان هما مالك بن دينار ومحمد بن واسع ، ثم مجموعة أخرى من التلاميذ - صالح المري وثابت البناني ، وسنبر الدستوائى ، ثم تلميذ متأخر - هو عبد الواحد بن زيد . وعدد آخر من التلاميذ ، انتشروا جميعاً فى البصرة . . . وكتبوا - فى حياة الروح لدى المسلمين أجمل الصفحات .

كانت النظرية العامة التى تشمل هؤلاء التلاميذ جميعاً : الحزن . . . البكاء . الحزن على أوصاب الدنيا وأضرارها ، وقصرها ، والبكاء على الذنوب والمعاصى والخطايا التى غرق فيها مجتمعهم البصرى ، خرجوا يندرون الناس . . . وفى خلال نذرهم ظفرت « الروح » منهم بلمحات فاتنة : وصور رائعة . وكان كل يصدر عن فكرة واحدة ، مع تباين الأمزجة ، وإن كان يعمهم فى الأغلب الطراز الفارسى العميق ، دقته فى التصوير ، وبراعته فى التعبير ، ولكن الروح كانت إسلامية بحتة . ولهذا لا بد أن نعرض لنماذج من هذه النظرية مجسدة فى أشخاص ، ليتبين لنا « أغاني الروح » التى أنشدوها .

١ - مالك بن دينار :

أما أول هؤلاء التلاميذ . . . فهو أبو يحيى مالك بن دينار (المتوفى سنة ١٣١ هـ - ٧٤٨ -

٧٤٩ م). وكان مالك بن دينار من الموالي ، مولى لامرأة من بنى سلمة . ويبدو أنه أعد منذ طفولته ليكون قارئاً ، ثم دخل في القصص ثم الوعظ . ولم يتكسب بعمل سوى أنه كان يكتب المصاحف ويبيعها لكي تسد رمقه . وقد أقبل على الحسن البصرى ، وفنى بين يديه ، وكان يمثل في كثير من نواحيه شيخه الكبير ، ويتابع سته ، كما كان يمثل ثقافة عصره كلها من معرفة بالإسرائيليات وتضمينها مواعظه .

أما أنه كان يصرخ في المجتمع البصرى ، وينذر خطاياهم فقط ولا يأبه بحكام بنى أمية ، فهذا خطأ . لقد حاول أن يخرج - على الأمرين - في ثورة ابن الأشعث . وها هو يقبل ثلاثة أيام متتالية على الشيخ يسأله : يا أبا سعيد ما تأمرنى ؟ فلا يجيب الشيخ . وينفذ صبر مالك فيقول له : « أتيتك ثلاثة أسالك . وأنت معلمى فلا تجيبنى ، والله لقد هممت أن آخذ الأرض بقدمى ، وأشرب من أفواه الأنهار ، وآكل من بقل البرية ، حتى يحكم الله بين عباده » . واهتر الشيخ لتلميذه فبكى . ثم قال « يا مالك ومن يطيق ما تطيق ، لكننا والله ما نطيق هذا (١) » وكان الشيخ يريد أن يجنب تلامذته هذه الفتنة ، ويعلم ما يحتج في نفوسهم من آلام ، ولكنه كان يؤمن بأنها ستزيد النار ضراماً في البصرة ، ولن يجنى الناس غير أشواكها . وقد مضى شيخ مالك بن دينار الآخر مع ابن الأشعث ، وهو سعيد بن جبير وذبحه الحجاج في مشهد مثير . وسيكى مالك بعد . . . سعيد بن جبير . هذا الذى كان كلامه دواء للخاطئين (٢) . استطاع الشيخ إذن أن يروض تلميذه على اتقاء الفتن ، وعلى الصبر على نوازع النفس . وأن يتجنب الفتن ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . ونراه - يتابع سنة الشيخ في اتقاء الحكام ، ويدخل عليهم ويعظهم ، ويقبل هداياهم ، ثم يفرقها على الفقراء ، ويعتق بها الرقيق . وسعياته صديقه محمد بن واسع الذى تخرج كلية عن الدخول على أمراء البصرة ، إنه يسأله بعنف : مالك قبلت جوائز السلطان ، فأجابه مالك : سل جلسائى . فقالوا : يا أبا بكر اشترى بها رقاباً أعتقهم . فقال له محمد بن واسع : أنشدك الله - أأقبلك الساعة له ، على ما كان قبل أن يجزيك ؟ قال : اللهم لا . قال : ترى أى شيء دخل عليك ؟ فقال مالك لجلسائه : إنما مالك حمار ، إنما يعبد الله مثل محمد بن واسع (٣) . كان مالك يتواضع أمام أصدقائه وتلامذته ، ويفضل صديقه على نفسه ولكنه كان يرى لزاماً عليه - بعد وفاة شيخه أن يدخل على أمراء البصرة يخوفهم النار ويعظهم ، كما كان يدخل على أصحاب المشور والحزاج ، لكي يكف أذاهم عن الناس . . . وهذا طريق العابدين من المسلمين .

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٦٧ . ٣٦٨ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٦ . (٣) ابن الجوزى : صفة . . ج ٣ ص ١٩٢ .

ولقد شغل مالك بن دينار بالقرآن ثم قام بحملة من القراءة ، وقد آله تكاليمهم على الدنيا ، فكان يدعوهم إلى ذكر الله « ما تنعم بالمنعمون بمثل ذكر الله تعالى (١) » ويصرخ فيهم الصرخة تلو الصرخة « يا حملة القرآن ، ماذا زرع القرآن في قلوبكم ، فإن القرآن ربيع المؤمن ، كما أن الغيث ربيع الأرض ، فإن الله ينزل الغيث من السماء إلى الأرض ، فيصيب الحش ، فتكون فيه الحبة ، فلا يمنعها تن موضعها أن تهتر وتختصر وتحسن . . . فيا حملة القرآن ماذا زرع الله في قلوبكم (٢) . وكان يخشى عليهم الدنيا ، ودعاها بالسحارة . . . فكان يردد . . . اتقوا السحارة ، فإنها تسحر قلوب العلماء وكان يعاتب صديقه العابد ثابت البناني لأنه كان يرخص لهم فيقول له أنا أبطهم ، فأخرج القمح والدم وأنت تدهتهم بالكدا - أي تحدهم بالرخص . وأنا أشدد عليهم (٣) .

وبعد : فهل خرج وعظ مالك بن دينار وصرخاته في البصرة إلى حدود التصوف ، وأى أثر له فيمن بعده - أم كان مجرد رجل من الصالحين ، متابعاً حياة أستاذه ومثاله . . .

(١) لقد شغل الرجل بالقرآن شغلاً تاماً . كان يكتبه وينطق به ولكن عبارة من عباراته عن القرآن تستوقف النظر « إن الصديقين إذا قرئ عليهم القرآن ، طربت قلوبهم إلى الآخرة » ثم يقول لمريديه - خذوا - . . . فيقرأ - ويقول « اسمعوا لقول الصادق من فوق عرشه » (٤) . ويدون أن تحمل النصوص أكثر مما تحمل ، هل نستطيع أن نرى في كلامه - أصلاً - لفرقة السالمية البصرية التي ستنشأ بعد ذلك بمدة ، مقررة أن الله - هو القاريء على كل لسان . وبخاصة أن مالك بن دينار يكثّر من التكلم عن الصديقين ويورد من الكتب السماوية الأخرى سياتهم وأوصافهم .

(ب) الذكر - نادى بالذكر كما رأينا . والنصوص كثيرة في هذا - وهو يضعها على لسان آية من التوراة « قرأت في التوراة : أيها الصديقون : تنعموا بذكر الله في الدنيا ، فإنه لكم في الدنيا نعيم ، وفي الآخرة جزاء عظيم » . . . وعن داود أيضاً « . . . عين الله إلى الصديقين وهو يسمع لهم . « وسبحوا الله أيها الصديقون بأصوات حزينة . بل إنه يرى أن الله يقرب من القلب ، ويتحدث عن نور الله . . . « قرأت في التوراة يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدي في صلاتك باكياً ، فإني أنا الذي اقتربت لقلبك ، وبالغيب رأيت نوري » ويعلق مالك - تلك الرقة وتلك الفتوح الذي يفتح الله لك منه » ويقرر أن أهون ما يصنعه الله بالعالم ، إذ أحب الدنيا أن يخرج من قلبه حلوة ذكره (٥) .

(١) نفس المصدر ج ٣ ص ١٩٧ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٥٨ ، ١٥٩ ابن الجوزي صفة ج ٣ ص ١٩٧ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٦٤ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٣٥٨ وابن الجوزي صفة ص ٢٠٧ .

(٥) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(ج) ليس الصوف : كان مالك بن دينار من أزهد الناس في الملابس . ولكن هل لبس هو الصوف - إنه يدعو إليه ؛ ويطلب من القراء لبسه « . . . يا قارئ . . . أنت قارئ - ينبغي للقارئ أن يكون عنده دارعة صوف وعصا راع - يفر من الله إلى الله عز وجل ويحوش العباد على الله تعالى » بل إنه عوب لإغلاظه على الناس في ملابسهم . . . فكان يقول « اكسبوا الحلال ، والبسوا ما شتم . . . » ثم يقول متأسفاً « زمرنا لكم ، فلم ترقصوا ، أى وعظناكم فلم تتعظوا (١) » . . . غير أن أبا نعم يذكر أنه كان يلبس إزار صوف وعباءة خفيفة . . . ويدعونا هذا إلى البحث عن صلته برهبان المسيحية . إننا نلاحظ أن الرجل أكثر من الاستشهاد بالتوراة فيذكر أنه قرأ فيها كذا وكذا من الأحاديث . كما أنه يورد أيضاً أقوالاً لموسى ولداود وللمسيح عليهم السلام . وكانت كلها بلا استثناء تدور حول « الذكر » والزهد في الدنيا والخوف من النار . غير أنه تميز بذكر قصص الخاطئين من اليهود ، وكان يريد أن ينذر الخاطئين ، في البصرة ، أن خطاياهم محمولة على أعناقهم . . . فلم يجد وسيلة من القرآن ومن الكتب السابقة ومن « الحكمة » كما كان يدعوها ، إلا واستخدمها لإصدار التامس وتذكيرهم . ولا شك أن مالك بن دينار درس الإسرائيليات المشهورة التي انتشرت في عصره ، كما درس التوراة . وليس هناك إشارة إلى دراسته للأناجيل مباشرة . غير أن نصاً هاماً حفظه لنا أبو نعم يثبت تماماً أن الرجل قرأ بعض كتب الزهد المسيحية . فقد كان مالك بن دينار يتردد على الأديرة . وهو يقول نفسه « كنت مولعاً بالكتب ، أنظر فيها ، فدخلت ديراً من الأديرة ليالى الحجيج ، فأخرجوا كتاباً من كتبهم فنظرت فيه . فإذا فيه : يا ابن آدم لم تطلب علم ما لم تعلم ، وأنت لا تعمل بما تعلم (٢) » ولا شك أن هذه الكتب كانت من كتب الزهد المنتشرة في أديرة الرهبان ، ونحن نعلم أن القديسين أفراميم وباسيل تركا كتباً كثيرة أحفظ بها في هذه الأديرة ، فهل ترجم بعضها إلى العربية أو الفارسية . . . ويذكر مالك نفسه مرة أخرى بها قائل راهباً على جبل من الجبال فناداه قائلاً : يا راهب أفدنى شيئاً فما ترهدنى به في الدنيا ، فقال : أولست صاحب قرآن وفرقان . قلت : بلى ! ولكني أحب أن تفيدنى من عندك شيئاً أزهد به في الدنيا . فقال إن استطعت أن تجعل بينك وبين الشهوات حائطاً من حديد : فافعل (٣) » ويبدو أن مالكا قد أعجبه بساطة حياتهم ولبسهم للمسوح بحيث يقول « يا هؤلاء - جهالكم كثير ، لولا ذلك للبت المسوح » ومرة ثانية يذكر « لولا أن يقول التامس جن مالك ، للبت المسوح ووضعت الرماد على رأسي ، أنادى في التامس ، من رآني فلا يعصني ربه عز

(١) أبو نعم الحلية ج ٢ ص ٣٦٤ ، ٣٨٥ ، ٣٥٨ .

(٢) أبو نعم حلية : ج ٢ ص ٥٣٧ .

(٣) نفس المصدر السابق : ج ٢ ص ٣٦٥ .

وجل « ومرة ثالثة «لولا سفائكم ، للبست لباساً ، لا يراني محزون إلا بكى» (١) ونحن نتساءل هل يقصد بالسوح هنا ملابس الرهبان «أو أنه يقصد مرقعة من الثياب» ، سواء هذا أم ذلك فقد كان للرهبان وللكتب المسيحية الزاهدة أثر عليه لا ينكر في الناحية الأخلاقية السلوكية ، ولكنه أتى أن يتشبه بالرهبان في لبس السوح مراعاة للشعور الجمعي ، واقتداء بسنة الحسن ، وكان الحسن - كما قلنا ينهى عن لبس الصوف . ولا عجب من أن يفعل مالك بن دينار هذا ، بل إنه يطلب عدم التشبه بلباس الأعداء .

«أوحى الله إلى نبي من الأنبياء : أن قل لقومك لا تدخلوا مداخل أعدائي ولا تطعموا مطاعم أعدائي ولا تلبسوا ملابس أعدائي ، ولا تركيبوا مراكب أعدائي ، فتكونوا أعدائي ، كما هم أعدائي (٢) غير أنه كان للرهبنة المسيحية أثر آخر عليه . فقد كان يتحنى النوم على المزابيل مع الكلاب ، وينقل عن عيسى « بحق أقول لكم : إن أكل الشعير والنوم على المزابيل مع الكلاب لقليل في طلب الفردوس» بل كان يدعو إلى هجر الزواج . . . والنوم مع الكلاب «لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين ، حتى يترك زوجته كأنها أرملة ، ويأوى إلى مزابيل الكلاب» وتعرض عليه امرأة من غنيات البصرة وجميلاتنا الزواج وكانت قد رفضت بنى هاشم والعرب والموالي - فسألها أبوها . . . أراك تريدين مالك بن دينار وأصحابه : فقالت « هو والله غايبي» .

وبعث إليه والدها بأحد أصدقائه يعرض عليه ابنته . فيقول للرجل «عجباً لك يا فلان ، - أما تعلم أتى قد طلقت الدنيا ثلاثاً» وهو هنا يردد قول الإمام على - ثم يسأل مالك بن دينار «ألا تتزوج؟ فقال : لو استطعت لطلقت نفسي» ويبدو من هذا أن الرجل قد نأى عن الزواج فعلاً ، وكان يقول «عرس المتقين - يوم القيامة» (٣) .

وهذا يدل على أن الرجل لم يتزوج قط ، ولكن صاحب الحلية يذكر عنه أنه قال «اشترت لأهلي ظيباً بدرهم ، وأتى لأحاسب نفسي فيه منذ عشرين سنة ، فما أجد لي مخرجاً» (٤) فهل كان يقصد بأهله زوجته . إن الصوفية فيما بعد لم يذكروا عنه أنه لم يتزوج ، علاوة على أنه كان ينهى القراء - عن زواج - ديباجة الحرم ، وهو اصطلاح بصرى يعنى - أجمل الناس ، ويحضهم على زواج اليتيمات الفقيرات . ومهما كان الأمر - في صلته بالرهبان - فقد اتصل مالك بن دينار بهم فعلاً ورأى اتفاق

(١) نفس المصدر السابق : ج ٢ ص ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٥ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٧١ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٣ ص ٣٦٩ ، ٣٥٩ ، ٣٦٥ ، ٣٧٩ .

(٤) نفس المصدر : ج ٢ ص ٣٦٩ .

الطريقين - طريق العباد المسلمين - وطريق الرهبان - وكان يته نفسه ديراً أو يشبه ديراً لا أثار فيه ، وقيل إن حريقاً وقع في بيت مالك ، فأخذ المصحف وأخذ القطيفة - وقد كانا كل ما في البيت ، فأخرجها - فقيل له : يا أبا يحيى : البيت . فقال : ما فيه إلا السندانة ، ما أبالي أن يحترق .. وهلك أصحاب الأتقال وكان البيت مظلماً طوال الليل ، ولم يكن يشعل فيه سراجاً (١) . بينما كانت الأديرة تضاء وتشغل فيها النيران . وكان يعلن أن كل ما يحمله إلى بيته من متاع وطعام ، فهو حل للناس ، وكان يقول «أنا لا أحتاج إلى قفل أو مفتاح» .

(د) المعرفة : كانت هناك عوامل إذن متعددة جعلت مالك بن دينار أثيراً لدى الصوفية من بعده ، ثم آثره الصوفية على شيخه حين تكون التصوف كعلم إرادة النفس ، أو كعلم إرادة القلوب . وقد خاض في دقائق القلب . حقاً إن ما وصلنا عنه ليس بالكثير ، ولكنه يحتوي لمحات نفاذة ، أثرت في الصوفية وتناقلوها . . . ومن الأمثلة على هذا أقواله «يقولون : الجهاد : أنا من نفسي في جهاد» وسيضع الصوفية أقوالاً يقررون فيها أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر ، وسينسبونها كأحداث صدرت عن النبي نفسه : كما أنه يتكلم عن حزن القلب : «إذا لم يكن في القلب حزن خرب ، كما إذا لم يكن في البيت ساكن يخرب» بل إنه يذكر القلب المحب «إن القلب المحب لله يحب النصب لله عز وجل . ويرى أيضاً أن القلب إذا علقه حب الدنيا ، لم تنجح فيه الموعظة ، ويطلب تعاهد القلب من الذنوب . وينقل عن عيسى بن مريم عليه السلام «أجبعوا أنفسكم وأطيعوها ، وأعروها وأنصبوها ، لعل قلوبكم أن تعرف الله عز وجل» بل دعا إلى زرع الصدق في القلب «ويدو في القلب ضعيفاً ، فيتعهده صاحبه ، ويزيد الله تعالى ويتفقدته صاحبه حتى يجعله الله بركة على نفسه ، ويكون كلامه دواء للخاطئين» . وأخيراً - يبحث عن جوهر العباد في المؤمن فيقول «مثل المؤمن مثل اللؤلؤة ، أيتها كانت حسنها معها» (٢) ثم كان مالك بن دينار أول من تكلم عن معرفة الله «خرج أهل الدنيا من الدنيا ، ولم يدوروا أطيب شيء فيها . قالوا - وما هو يا أبا يحيى قال : معرفة الله تعالى (٣) » . وبهذا كان مالك ابن دينار أول من نبه إلى حقيقة المعرفة ، وستلعب دورها الكبير عند الصوفية من بعده .

• • •

وزهد مالك بن دينار الناس ، فلجأ إلى مصاحبة الكلاب ، فكانت تتبعه ، وكان يجالسها وكان

(١) ابن الجوزي : صفة ج ٢ ص ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٢) أبو نعيم : حلية . ج ٢ ص ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٧٠ - ٣٧٧ .

(٣) نفس المصدر : ج ٢ ص ٣٨٤ وابن الجوزي صفة ج ٣ ص ٢٠٤ .

يقول « هذا خير من جليس سوء . هذا لا يؤذيني » . وعاف الناس جميعاً ، ولجأ إلى المقابر . . .
ويخاطب أهلها « نحن رهائن الأموات ، وهم محتسبون حتى ترد إليهم الرهائن » . ثم يعلن تحنيه ،
لولا خوفه من أن يحدث حدثاً في الإسلام ، أن يأمر إذا مات ، أن يغل ، وأن يدفع إلى الله مغلولاً
كالعبد الآبق^(١) .

وبعد : فإن هذا الكاتب للقرآن ، هذا العابد الكبير ، كان يذهب هو وثابت البناني ويزيد
الرقاشي وزياد النخعي ومجموعة من عباد الكوفة إلى أنس بن مالك - الصحابي العظيم ، وخدام رسول
الله ، وكان أنس ينظر إليهم بإعجاب ثم يقول « ما أشبهكم بأصحاب محمد رسول الله . . . والله لأنتم
أحب إلي من عدة ولدي ، إلا أن يكونوا في الفضل مثلكم ، وإني لأدعولكم بالأسحار »^(٢) . كان
مالك بن دينار إذن من تلامذة « خدام رسول الله » روى عنه ، كما روى عن « جماعة من كبار التابعين »
كالحسن البصري وابن سيرين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله . ولذلك نرى الذهبي يصفه بأنه « من
علماء البصرة وزهادها المشهورين » ويقرر أن البخاري استشهد به ووثقه النسائي وتوفي سنة إحدى
وثلاثين ومائة^(٣) .

٢ - محمد بن واسع :

وبينا كان مالك بن دينار يعلن في أعماق البصرة روح العبادة ، ويصيح « لوجدت أعواناً لناديت
في منار البصرة بالليل . . . النار . . . النار . . . » كان هناك صديقه وتلميذ الحسن البصري الآخر -
محمد بن واسع - يحاول إخفاء الجوهرة فيه . . .

كان محمد بن واسع من تلامذة الحسن المقرين ، وكان الحسن يسميه زين القراء . ولم يحاول محمد
ابن واسع قط الدخول على الأمراء ، وقد رأينا كيف كان يعيب على صديقه مالك بن دينار فعله هذا .
بل إن مالكاً كان يقول « إن من القراء - قراء ذا الوجهين . إذا لقوا الملوك ، دخلوا معهم فيما هم فيه ،
وإذا لقوا أهل الآخرة ، دخلوا معهم فيما هم فيه فكونوا من قراء الرحمن . وإن محمد بن واسع من
قراء الرحمن » . . . وعرض عليه القضاء ، فأبى ، وغضب أمير البصرة ، ودعاه بالأحمق ، فما كان
من محمد بن واسع إلا أن رد عليه - ما زلت يقال لي هذا منذ أنا صغير » . وعاش محمد بن واسع في

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٦١ - ٣٧١ وابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٩٧ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٨١ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢٠٩ والذهبي : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٤٢٦ .

تواضع عباد البصرة ، بل في مقام المسكنة . وها هو ذا ينهى ابناً له يحظر في مشيته « تعال . ويحك أتدرى ابن من أنت . أمك اشترتها بمائتي درهم . وأبوك لا أكثر في المسلمين أمثاله (١) » وكان محمد بن واسع يخفي صومه وبكائه . ويعيب على من يعلن حالة البكاء على الناس ، وينقد على أبي سلمة يخفي نسبه إلى البكاء ويقول : إن شر أيامكم يوم نسبتم فيه إلى البكاء (٢) . وكان قليل الكلام ، يفضل الصمت ، ولم يكن يلبس الصوف ، « ولم يكن يرى كثير عبادة (٣) » كان يخفي عبادته ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ولكن بالرغم من محاولته هذه كان الناس ينظر إلى وجهه الرقيق ، فإذا هو كالثكلي . . . وتقول مولاة له فارسية لبعض أصدقائه « هذا رجل ، إذا جاء الليل لو كان قتل أهل الدنيا ما زاد » .

وقد وضع مؤرخو التصوف محمد بن واسع في موازاة مالك بن دينار ، فالك يشهد له بعظمته النفسية وعلوه على ما هم فيه . . . يأتي حوشب إلى مالك بن دينار ويقول له : يا أبا يحيى - رأيت البارحة كأن منادياً يقول : يا أيها الناس . الرحيل . . . الرحيل : فما رأيت أحداً يرتحل إلا محمد بن واسع . فصاح صيحة وخر مغشياً عليه (٤) . . . ونهى محمد بن واسع صديقه مالك بن دينار عن الدخول على الأمراء - فيقول مالك « إنما مالك حمار ، إنما يعبد الله مثل محمد بن واسع (٥) » . ويسمع محمد مالكا يقول لابن حوشب : لا تبتين أنت وشعبان ، ودع الطعام ، وأنت تشبهه . فقال حوشب : هذا وصف أطباء أهل الدنيا ، فيقول محمد بن واسع : نعم . ووصف أطباء طريق الآخرة . فقال مالك : يخ يخ للدين والدنيا : ويجتمع الصديقان : فيقول مالك : إني لأغبط رجلاً معه دينه له قوام من عيش ، راض عن ربه عز وجل فيقول محمد بن واسع . إني لأغبط رجلاً معه دينه ليس معه شيء من الدنيا ، راض عن ربه . وانصرف القوم وهم يرون أن محمداً أقوى الرجلين « ويرى مالك أن طاعة الله هي كل شيء ، وإلا فالنار ، ويرد محمد بن واسع ، أن الطاعة لا ترقى إلى رتبة العفو » إنما هو عفو الله أو النار (٦) ثم لا نرى في تراث محمد بن واسع أثراً للإسرائيليات ، أو أخذاً عن الأنبياء السابقين . ولكن لا تختلف آراء الرجلين - كما سنرى بعد قليل - كان أحدهما يصرح والآخر يصمت . وهذا كل ما بينهما من خلاف . ومن العجب أننا نرى مؤرخي التصوف - يعتبرونه « أحد الأبدال » بل

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٤٥ - ٣٥٠ وابن الجوزي صفة ج ٣ ص ١٩٣ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٤٧ وابن الجوزي صفة ج ٣ ص ١٩٣ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٩٢ .

(٤) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٩١ .

(٥) أبو نعيم : حلية ج ٣ ص ٣٥٤ ، وابن الجوزي صفة ج ٣ ص ١٩٣ .

(٦) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٥١ .

الوحيد منهم في العراق في عصره .

كان محمد بن واسع ، من القراء ، ومن الخائفين ، وكان هو يقول « ما ظنك برجل يرحل كل يوم إلى الآخرة مرحلة » وكان أيضاً يردد « يا أخوتاه . تدرتون أين يذهب بي ! يذهب بي - والله الذي لا إله إلا هو - إلى النار أو يعفو عني » . . . ويخشى الذنوب ، بل كانت حياته - وهو العابد الزاهد الخائف - ذنباً وخطيئة « لو كان يوجد للذنوب ربح ، ما قدرتم أن تدنوا مني لئن ربحي (١) ودعاه هذا إلى أن يزهد في الدنيا وفي الناس ، بل كان يعلن من زهد هو ملك في الدنيا وفي الآخرة . ثم بدأ يتكلم في حركات القلب . فالقلب عنده هو وسيلة العبادة الحقيقية فأخذ يفتش عن أدوائه : أربع يمتن القلب : الذنب على الذنب ، وكثرة مفاينة النساء وحديثهن ، وملاحاة الأحمق ، تقول له ويقول لك وبجالسة الموتى . وما سئل عن مجالسة الموتى هنا ، أجاب : بأنه مجالسة كل غنى مترف وسلطان جائر . ولقد كره محمد بن واسع الأمراء والحكام والسلاطين واعتبرهم - الظلمة - وإذا صلح القلب ، صح نداؤه ، واستجاب له السامعون ، فالقلوب تتناجى . . . لقد سمع قاصداً يجلس قريباً من مسجده يقول « مالي لا أرى القلوب تخشع ، ولا أرى العيون لا تدمع ، ولا أرى الجلود لا تقشع . فقال محمد بن واسع : يا عبد الله : مالي أرى القوم أتوا وإنما من قبلك . إن الذكر إذا خرج من القلب ، وقع على القلب (٢) وكان يقول « إذا أقبل العبد بقلبه إلى الله عز وجل ، أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين (٣) » . وابتعد ابن واسع عن أهل الأهواء ، وآمن بالقضاء والقدر ، ولما سأله أمير البصرة عن القضاء والقدر . أجاب « إن الله لا يسأل يوم القيامة عباده عن قضائه وقدره وإنما يسألهم عن أعمالهم » ويذكر لرجل يبكي « أبكاك قط سابق علم الله فيك (٤) » فالرجل إذن كان جبرياً ، يكره القدرين وينأى عنهم . وحين حانت منيته نادى في أصحابه « يا أخوتاه . . . هبوني وإياكم سألتنا الله الرجعة ، فأعطاكموها ، ومنعنيها ، فلا تحسروا أنفسكم (٥) » .

وبعد : فإننا لا نرى بين محمد بن واسع ومالك بن دينار كبير اختلاف ، كان الاثنان من القراء ، ثم دخلا في الوعظ ، فأكثر مالك ، وأقل محمد بن واسع . وقد روى الاثنان عن أنس بن مالك وعن الحسن وابن سيرين (٦) . وحين أرخ الذهبي له - كمحدث - قال : إنه أبو بكر البصري الزاهد .

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٤٩ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٣٥١ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٩٢ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٣٥٤ وابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٩٥ .

(٥) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٩٥ .

(٦) أبو نعيم حلية : ج ٢ ص ٣٢٩ .

أحد الأعلام ووثقه - ولكنه يورد عن يحيى بن القطان المحدث المشهور أنه سئل عن محمد بن دينار ومحمد بن واسع ... وغيرهما من الزهاد والصالحين . فقال « ما رأيت الصالحين في شيء أكذب منهم في الحديث ، يكتبون عن كل أحد ^(١) » وقد مات محمد بن واسع - فإما يرجع ابن الجوزي سنة عشرين ومائة .

٣ - ثابت بن أسلم البناي

وتتضح العبادة البصرية المختلطة بالقصص والوعظ لدى عابد من كبار تلامذة الحسن البصري هو أبو محمد ثابت بن أسلم البناي . وقد كان ثابت من المقرين للصحابي الكبير أنس بن مالك ، وكان أنس يسأل « أين ثابت ، أين ثابت ، إن ثابتاً دوية أحبها » وكان يقول عنه « إن للخير مفاتيح ، وإن ثابتاً مفاتيح من مفاتيح الخير » بل يقال إن من أسباب إقباله على البكاء أن أنسا قال له . ما أشبه عينك بعيني رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) . وقد احترم أحمد بن حنبل - ثابتاً وكان يقول إن « ثابتاً أثبت من قتادة ، وكان يقص ، وكان قتادة أذكر - وكان محدثاً » أما الذهبي فيقول إن ثابتاً ثابت كاسمه ^(٣) وقد أخرج له مسلم والنسائي وأحمد كان الرجل إذن مكتملاً من الناحية النقلية ، بل إن الإمام أحمد بن حنبل بفضلته على قتادة بن دعامة السدوسي أحد محدثي البصرة الكبار .

أما عن عبادته ، فقد قال عنه أبو بكر بن عبد الله المزني القاص والعابد المشهور « من أراد أن ينظر إلى أعبد أهل زمانه ، فليتنظر إلى ثابت البناي ما أدركنا أعبد منه ^(٤) » . بل « إنه ليظل في اليوم المعماني الطويل ، ما بين طرفيه ، صائماً يروح ما بين جهته وقدمه » وكان هو يعلن أن أسامس العبادة الصوم والصلاة . إنها في لحم العابد ودمه ، وكان يعرف صعوبة الصلاة ذات الاطمئنان ، ذات النعم الباسق ، ويقرر أنها مكابدة ومعاناة . يقول : « كابدت الصلاة عشرين سنة ، وتنعمت بها عشرين سنة ^(٥) » وقد استفاضت كتب الطبقات بصلاته وصومه ، وكان يرى أن الطريق الوحيد للدعاء ولاستجابة الدعاء ، هو الصلاة . وكان أيضاً يكثر البكاء ، حتى عمشت عيناه . ومن الغريب أن يفعل هذا ، وقد روى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله غنى عن تعذيب الإنسان

(١) الذهبي : ميزان الاعتدال ج ١ ص ٣٦٢ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، وابن الجوزي صفة ج ٣ ص ١٨٤ .

(٣) الذهبي : ميزان الاعتدال . . ج ١ ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

(٤) نفس المصدر السابق : نفس الصحيفة .

(٥) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ .

لنفسه (١) . وقد كان هو نفسه «يلبس الثياب الثينة والطياصة والمعائم (٢)» .

ولقد كثرت الأدعية المأثورة عن ثابت «يا باعث يا وارث لا تدعني فرداً وأنت خير الوارثين» كما كان يدعو بأن يأذن له في الصلاة في قبره بعد موته . . ولكن هل أقرب ثابت من روح التصوف . ذكر أبو نعيم عن البكري يصف ثابتاً : ما رأيت أحداً أشد حياءً لربه عز وجل من هذا الأعمش فهو هنا من طائفة المحيين ، ويذكر السراج الطوسي أن ثابتاً يروى عن عمران بن حصين الصحابي ، ولكنه ما يلبث أن يدلي برأى في الذكر يفزع الجالسين : إني لأعلم متى يذكرني ربي عز وجل ، ففزع الناس وقالوا : تقول تعلم حين يذكرك ربك ، قال : نعم : قالوا : متى ، قال : إذا ذكرته ذكرني ... (٣) « وهذا معنى لم تكن تعرفه العبادة ، وسيأخذ عند الصوفية من بعده معاني أعمق ، عن الذاكر والمذكور ، واستجابة الواحد للآخر ... وهذا مدخل خطير في التصوف ، وبلا شك لم يتبه ثابت البناني إلى خطورته إننا سنجد حديثاً أو ما يشبه الحديث ، أنا جليس من يذكرني ... يأخذ نفس الصورة ، ويستخدم في نظرية ، وحدة الشهود بل في نظرية الحلول . ويقرب أيضاً من التصوف الحلول في دعاء له «إليك رفعت رأسي يا عامر السماء . نظر العبيد إلى أربابها - يا ساكن السماء (٤)» وهذا قول صريح في حلول الله في المكان ، فهل تنبه ثابت أيضاً إلى هذا . إني لأشك أيضاً أنه كان يشعر بما يؤديه هذا القول من نتائج .

٤ - أيوب بن أبي تيممة السخيتاني

وانتشر الصوف في البصرة ، وأقبل العباد عليه ، ويلبسه كبير من كبار عباد البصرة - وهو بديل بن ميسرة العقيلي (توفي عام ١٣٠هـ) . وكان بديل عالماً وقاصاً وكان يقول لأهل البصرة «من أراد بعلمه وجه الله عز وجل ، أقبل الله عليه بوجهه ، وأقبل بقلوب العباد عليه ، ومن عمل لغير الله عز وجل ، صرف الله عنه وجهه ، وصرف قلوب العباد عنه» وكان يصوم الدهر ، ويقول : الصيام معقل العابدين (٥) « ... وقد آلم وأمض هذا أيوب بن أبي تيممة السخيتاني (المتوفى في عام ١٣١هـ) وكان أيوب من كبار تلامذة الحسن ، وكان الحسن يدعو «سيد شباب أهل البصرة» «وهذا سيد الفتيان» .

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٣٢٩ .

(٢) الذهبي : ميزان الاعتدال . . ج ١ ص ٣٦٣ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٤) أبو نعيم : حلية ص ٣٢٧ .

(٥) ابن الجوزي صفة ج ٣ ص ١٨٩ .

وقد وضع أيوب « بذرة الفتوة » . لبس هؤلاء الصوف ، وقصروا ملابسهـم ، فلبس هو « القمصان الجيدة الهروية والقلائس والأدرية المترفة . فلما كلمه أصدقاؤه في هذا ، قال « الشهرة اليوم في التشمير » وكان منظره هذا يعده عن أن يكون ناسكا . بحيث يقول حماد بن زيد - من عباد البصرة - « لو رأيتم أيوب ثم استمقاكم شرية على النسك ، لما سقيتموه » وكان أيوب يقول « إن قوما يريدون أن يتواضعوا ، ويأبى الله إلا أن يرفعهم » ... وإذا ذكر الصالحون أمامه ، قال في نبرة الفتوة « إذا ذكر الصالحون ، كنت منهم بمعزل » وكان يتجنب في سيره طرق الشهرة . ويرى أن العفة والصفح هما صفتا العابد « لا ينبل الرجل حتى تكون فيه خصلتان ، العفة عما في أبدى الناس ، والتجاوز عما يكون منهم » ... ويتجاوز هو تجاوز الفتیان ، بحيث نراه - وقد آذاه رجل هو وأصحابه أذى شديداً - يقول : « إني لأرحمه . إنا نفارقه وخلقه معه » ، وكان يتسم في وجوه من يقابل أشد التسم ... وكان إذا استمع إلى حديث الرسول يبكي ، ويذهب أيوب للحج ، ومعه عبد الواحد بن زيد ويعطش عبد الواحد ابن زيد ، ولا يجد ماء على جبل حراء ، ويرى أيوب هذا فيستحلفه ألا يذكر لأحد - ما دام حياً - ما سيفعله . ويقسم عبد الواحد بن زيد . فيضرب أيوب الأرض بقدمه ، فينفجر الماء ، ويشرب عبد الواحد بن زيد حتى يروى .

كان أيوب يحنى جوهرة التصوف في أعماقه ، وكان يكره كل بدعة سواء في اللبس أو في الفكر ، فيكره أهل القدر ، ويتأسف على موت أهل السنة ... وحين مرض ، دخل عليه بديل بن ميسرة وعليه الصوف ، ورآه بديل على فراش وثير ... وعليه غطاء أحمر ... فأنكر بديل عليه هذا ، فرد عليه أيوب . هذا خير من الصوف الذي عليك (١) .

وهكذا . . . أقام أيوب السخيتاني أسس « الفتوة » في أعماق البصرة . والتزم سنة « الحسن » ، الحفاظ على المظهر الإسلامي ، مظهر الفقيه الصالح العابد ، داخلا في حظيرة « العبادة » في صمت ، مخيفاً أحاسيسه عن الناس معتبراً الشهرة وإظهار التعبد خطيئة . فكان يصيح كما ذكرت من قبل « إذا ذكر الصالحون كنت منهم بمعزل » .

* * *

٥ - تلاميذ آخرون : صالح المري وزملاؤه

ولم تتوقف صرخة الوعظ العبادي ، بل زادت في أعماق البصرة ، وأقبل على الحسن البصري شباب

(١) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢١٢ - ٢١٧ .

من الموالي ومن العرب ، يقرأ القرآن في حلفته ، وكان على رأس هؤلاء صالح المري وسنبر الدستوائى وعطاء السليمى . . .

أما صالح المري ، فهو صالح بن بشير ، وكنيته أبو بشر ، كان مملوكا لامرأة من بنى مرة بن الحارث من بنى عبد قيس (١) . فكان صالح إذن - في الأرجح فارسياً . ويعرف الجاحظ به فيقول « صالح المري القاص العابد البليغ (٢) » . أما الذهبي فيقول : صالح بن بشير الزاهد . أبو بشر المري الواعظ « فكان أميز صفة عرفها الناس عنه هي « الوعظ » . غير أن الوعظ عنده كان قد بلغ مداه ، « إذا أخذ في قصصه ، كأنه رجل مدعور يفرعك أمره من حزنه وكثرة بكائه ، كأنه ثكلى . كان شديد الخوف من الله (٣) . كان صالح إذن من القصاص ، كما كان من القراء . وقد عرف بصالح القارئ . ويبدو أن مزاجه الفارسي أضنى على قصصه ووعظه وقراءته دقة في التعبير ، وغرابة تفجأ السامع . وكان سفيان الثوري يكره الوعظ ، ولكنه استمع ذات يوم لصالح المري فبكى وقال « ليس هذا بقاص ، هذا نذير قوم (٤) » وكان صالح يفتن في وصف النار فيستمع الناس حتى الخثيثين والمؤثنين من شباب البصرة ، فيصيحهم الصعق . ويقرأ القرآن متخيراً آياته التي تتكلم عن النار ، فيسقط المستمعون « مصعوقين (٥) » . كان « الصعق » ميزة أوائل وأواسط القرن الثاني الهجري . وكان صالح المري من أوائل الوعاظ الذين أرسلوا صيحات الصعق في الكوفة . وقد امتلأت كتب مؤرخي العباد والصوفية بأخبار صيحاته . بل إن عابداً مشهوراً من عباد البصرة هو أبو جهير مسعود الضرير كان يردد لامرأته « إن قرأ على صالح قتلنى » فلما دخل عليه صالح المري مع مجموعة من رجال الحسن وعرف أبو جهير أن بينهم صالحاً ، طلب منه أن يقرأ ، فقرأ (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) صرخ أبو جهير وغشى عليه ومات (٦) . . .

أما صور وعظه فكثيرة ، وأقواله تتسم بالعمق . . . فهو يصيح في أهل البصرة أنهم أمروا بالرحيل ، ولكنهم يلهون . « يا عجبا لقوم أمروا بالزاد وأذنوا بالرحيل ، وحبس أولهم على آخرهم ، وهم يلعبون » ، ويقول أيضاً في نفس المعنى : وكيف تفر بالدنيا عين من يعرفها . . . ثم يبكى ويقول : خلفه الماضين وبقية المتقدمين ، رحلوا أنفسهم عنها قبل الرحيل ، فكان الأمر قريب نزل بهم « ويتطلب الخوف ، وأن يزرعه الله في قلبه ، هو عاصم الشهوات « اللهم إني أسألك خوفاً غير ناهض ،

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٦٥ . (٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٩٣ .

(٣) الذهبي : ميزان ج ٢ ص ١٨٩ وأبو نعيم : حلية ج ٦ ص ١٦٧ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٦٧ . (٥) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١١ .

(٦) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٥١ .

ولا قاطع ، خوفاً حاجزا عن معصيتك ، مقوياً على طاعتك ، وأسألك صبراً على طاعتك وصبراً على معصيتك (١) .

ولكن هل اقتحم أيضاً صالح المري باب التصوف . إننا نجد بعض اللمحات الجميلة صدرت عنه يتكلم فيها عن التفكير في الذنوب ، وهذا التفكير هو من دواعي البكاء . والتفكير يصدر من القلب أو إن القلب يستجيب ، فإن لم يستجب القلب ، فأعرض عليه مواقف القيامة ، وينقل عن الحسن « تفقدوا الخلاوة في ثلاث : في الصلاة وفي القرآن وفي الذكر . فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا ، وإن لم تجدوها ، فاعلم أن بابلك مغلق (٢) » .

أما اللمحة الأخرى الصوفية ، فهي تعلقه بفكرة الاسم الأعظم ، وهي فكرة صوفية هامة ستلعب دورها كما قلت من قبل لدى الصوفية فيما بعد ، ورجال الطرق ، ولدى الغلاة من الشيعة . يقول صالح المري « إذا أجيبت أن يستجاب لك ، فقل : اللهم إني أسألك باسمك المخزون المكنون المبارك الطاهر الظاهر المطهر المقدس ، . . . فما دعوت به في شيء إلا تعرفت الإجابة (٣) » . ولا عجب بعد ذلك أن يجرحه رجال الحديث . ويقول الإمام أحمد بن حنبل « هو صاحب قصص ، وليس هو صاحب حديث ، ولا يعرف الحديث » وتوفي صالح المري سنة ثلاث وسبعين ومائة (٤) .

وكان يعاصر صالحاً المري مجموعة من رجال الحسن أيضاً ، منهم هشام بن أبي عبد الله المشهور بسنبر الدستواني ، (المتوفى عام ١٥٣ هـ) وعطاء السلمي وقد وصفه الذهبي فقال إنه من كبار الخائفين في البصرة . . . وأن غالب ما عنده الحكايات . . . ولم يذكر تاريخ موته (٥) . وشميظ بن عجلان وحسان بن أبي حسان - وقد كان لهُذين الأخيرين أثر في رباح بن عمرو القيسي العابد المحب .

• • •

كان القرآن الأول - كما رأينا - قرن الخوف في مجال الحياة الروحية في الإسلام ، مستندا على القرآن والسنة ، مستلهما أحداث الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وانتشر المد الخوفي إلى القرن الثاني ، فشمع روح الحياة أيضاً ، وانتشر لدى العباد - كما رأينا - وتمكن في أعماق البصرة ، ولكن لا بد لكل قرن - وهذه سنة حضارية - من صبغة تختلف به عن القرن الذي سبقه ، وسنجد هذه الصبغة التي تجتاح القرن الثاني - وتعطي صبغة من اطمئنان على روح الحياة الروحية في هذا القرن - وهذه الصبغة ، هي « الحب » الإلهي « مختلطاً بالخوف ، أو بالحب الإلهي نقياً . . .

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٦٥ ، ١٦٨ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٦٧ ، ١٧١ .

(٣) نفس المصدر ج ٦ ص ١٦٨ .

(٤) الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٥) الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٧٨ ، ٧٩ .

الفصل السادس

رواد الحب الإلهي الأوائل

صرخ الحسن البصرى صرخته الرهيبة في أعماق البصرة ، منذرا الناس في أرجاء العالم الإسلامي جميعا بالعذاب الأبدى للخاطئين ، وصور لهم النار الأبدية التي تشتعل في ضمير الغيب أمامهم ، وبين لهم - قصر الحياة وتفاهتها ووضع لهم طريق الآخرة ، وامترج الحزن بالقلوب ، والدموع بالعيون . . . وأقبل عليه « الخائفون » . . . وترددت صور النيران أمام مجتمع البصرة ، وسرى أن خوف البصرة وبكاءها سرعان ما انتقل إلى الكوفة والمدائن وواسط وخراسان والشام والمدينة ومصر . . . ونظر الجميع إلى غضب الله . ولم ينظروا إلى رحمته ، وتأمل الجميع انتقامه ، ولم يتأملوا عفو . . . هكذا كانت حياة الروح في العالم الإسلامي ، وقد ساد العالم الإسلامي القلق النفسى والروحى ، كما ساد القلق الاجتماعى ، والقلق الاقتصادى . ولكننا بالرغم من هذا قد رأينا لمحات من اطمئنان إلى الله ورضاه وعفوه ، بل رأينا لمحات من الحب لدى هؤلاء العباد الأوائل ، حقاً إن هذا الحب لم يكن ذوباناً في الله ، ولكنه كان تأملاً ذا عمق في الروح الإلهية الخالدة ، ولقد رأينا كيف أعلن أول عابد في الإسلام - عامر بن قيس - لمختمن لمحات المحبة الإلهية « أحببت الله حبا سهلا على كل معصية ، ورضاني بكل قضية - فما أبالي مع حبي إياه ما أصبحت عليه » كما رأينا من قبل زاهدا من نفس قبيلة عامر بن عبد قيس ، وهو خليل بن عبد الله العصرى يقول « يا إخوتاه - هل فيكم من أحد لا يجب أن يلتقى حبيبه ، ألا فأحبوا ربكم وسيروا إليه سيرا كريماً .

كان هذان العريان أول من نطق من عباد الإسلام بلمحات المحبة الإلهية وقد قلت من قبل إننى لم أجد في حياة هذين العابدين صدى لمؤثر خارجى ، اللهم إلا إذا قلنا - إنها من قبيلة عبد قيس الغامضة ، يشوب تاريخها قبل الإسلام الغموض ، هل تمسحت ، هل انتشرت فيها المسيحية ، هل كانت هذه القبيلة من أصل فارسى . ويزيد غموضها أنها تشيعت فيما بعد ، بل انتشر التشيع الغالى فيها . قد يكون كل هذا حقاً ، ولكن النقد الداخلى للنصوص التى تركت لنا عن هذين العابدين لا يقدم لنا دليلاً خارجياً أو باطنياً أنها تغنيا بلمحات الحب الإلهى عن مصدر خارجى .

ثم يأتي بعد حبيب العجمي . وقد قلت من قبل إنه أيضاً عبر عن الحب الإلهي « وعزتك إنك لتعلم أني أحبك » بل من العجب - وكما لاحظ الدكتور كامل الشيبى بحق - أن السمعاني حين أرخ له ذكر أن « أخباره في العشق والعبادة مشهورة » (١) وقد ذكرت من قبل جملة من أحاديثه في الأنس بالله والفرح به ، ثم محبته .

ولقد استمع إلى صيحة الحب نفسها في أيام الحسن البصرى على لسان عابدة عرفت باسم بردة الصريمية . كانت بردة عابدة من كبار العابدات ، ويذكر أشرمس أبوشيان - وكان عابداً من البكائين عن ثابت البناني أنها من نساء الصدر الأول ، وأنها عاصرت الحسن البصرى وكانت تكثر من البكاء ، حتى فسد بصرها . فلما كلمها بعض العباد ، في هذا وقد خافوا أن يذهب بصرها كلية : قالت : دعوني . فإن أكن من أهل النار ، فأبعدني الله وأبعد بصرى ، وإن أكن من أهل الجنة ، فسيبدلني الله عينين خيراً من عيني . وأخبر الحسن بأمرها فذهب إليها وقال : لها : يا بردة إن لبدنك عليك حقاً وإن لبصرك عليك حقاً . قالت : يا أبا سعيد : إن أكن من أهل الجنة ، فسيبدلني الله خيراً من بصرى ، وإن أكن من أهل النار ، فأبعد الله بصرى . وكانت تردد « أصبحنا أضيافاً متجعجين بأرض غربة ننتظر الداعي » وإذا سمعت القرآن ، صرخت وتكلمت بما لا تريد . . . « ربما سمعت القرآن ، فأرى ملك بني مروان ، قد حوى لى » ثم كانت أولى من أعلن صرخة الحب ، وسبقت رابعة في نفس أقوالها ، أو كأن رابعة رددت أقوالها فيما بعد . كانت تقوم الليل ، فإذا سكنت الحركات وهدأت العيون نادى بصوت لها حزين « هدأت العيون وغارت القلوب ، وخلا كل محبوب بحبيبه ، وقد خلوت بك يا محبوبى ، أفترك معذبي ، وحبك في قلبي . لا تفعل يا حبيباه » (٢) وسيتردد هذا المعنى بل هذه العبارات - لدى العباد من بعدها ، ولدى رابعة من بعدها .

وتتردد معاني الحب الإلهي أيضاً لدى كهمس بن الحسن القيسي التميمي والمشهور بكهمس الدعاء (المتوفى سنة ١٤٩ هـ) . كان كهمس يقول في جوف الليل « أراك معذبي - وأنت قرّة عيني - يا حبيب قلباه » (٣) وإذا حاولنا أن نتبين دواعي هذه الصرخة . في حياة الرجل ، لرأينا أنها أيضاً صادرة عن الخوف والبكاء . . . بكى كهمس أربعين سنة - فيما يقولون ، وكانت حياته صورة من حياة الآخرين : اعتزال للفتنة السياسية ، ثم كراهية للقدرية ، وكان عمرو بن عبيد وأصحابه يأتون إليه

(١) الدكتور كامل الشيبى : الصلة ج ١ ص ٣٢٤ والسمعاني . الأنساب ورقة ١٣٨ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٣ و ٢٤ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ٢١٣ .

وبجالسونه ، فنهته أمه - وكانت امرأة عابدة ، وقد لزمها كهمس للخدمة ، فامتنع عن ^(١) مجالستهم . وقد خرج كهمس مع أمه إلى مكة ، وعاش فيها حتى مات ولم يكن هذا المحدث الثقة ^(٢) - كما يدعوه الذهبي - يغلى بالحلب ، كما يغلى بالخوف . بل إنه لم يطمئن إلى هذه المحبة ، كما اطمأن إليها معاصره حبيب العجمي أو سابقوه من أمثال عامر بن عبد قيس أو خليلد بن عبد الله العصري .

١ - عبد الواحد بن زيد : أول محب حقيقى من الزهاد

غير أن فكرة الحب ما تلبث أن تسود الحياة الروحية لعابد من أكبر عباد البصرة ووعاظها الزهاد ، وهو عبد الواحد بن زيد (توفى عام ١٧٧ هـ) . وقد عبر أبو نعيم عنه بأبلغ تعبير . . . حين قال « المنفلت من القيد ، المتصيد للصيد » . . . انفلت من قيود الفكرة العذابية النارية متصيداً للوجه الإلهي . . . ولعل هذا ما دعا ابن تيمية إلى اعتباره أول صوفى على وجه الحقيقة . وذكر الذهبي أنه « شيخ الصوفية وواعظهم » ^(٣) . وتردد ذكره كثيراً على لسان أبي سليمان الداراني شيخ مدرسة الشام وتلميذه أحمد بن أبي الجوارى ^(٤) والفضيل بن عياض ، تخرج عبد الواحد بن زيد في مدرسة الخوف والبكاء والعبادة ، وكان يحضر حلقة مالك بن دينار في المسجد ، وكان الناس لا يفهمون كلام مالك لكثرة بكاء عبد الواحد ^(٥) ولزم المشايخ الكبار من تلاميذ الحسن وحضر وفاة أكثرهم : حبيب العجمي . وحوشب ، وقد فجمه موت هذا الأخير وخاطبه - وهو يدفن : يا أبا بشر . لقد كنت حذراً من مثل هذا اليوم رحمتك الله يا أبا بشر . فلقد كنت من الموت جزعاً . أما والله لئن استطعت ، لأعملن رحلى - بعد مصرك هذا « ثم شمر للعبادة واجتهد » ^(٦) . وكان يردد « ما يسرفي أن لى جميع ما حوت البصرة من الأموال والثروة بفلسين » .

ثم بدأ سياحاته ، فذهب إلى فارس مع فرقد السبخي ، ومحمد بن واسع ومالك بن دينار . ورأوا في الطريق ضوءاً في سفح جبل ، فذهبوا لاستطلاع الأمر ، فرأوا خصاً مجذوب يقطر قيحاً ودماً ، وآلهم أمره ، فطلب منه أحدهم : أن يذهب إلى البصرة يتداوى ويتعالج من بلائه هذا . فأجاب

(١) نفس المصدر ج ٦ ص ٢١١ ، ٢١٥ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(٢) التقي : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٤١٥ - ٤١٦ .

(٣) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ٦٧٣ .

(٤) وأبو نعيم : حلية ج ٦ ص ١٥٥ .

(٥) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٥٩ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٤١ .

(٦) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٥٩ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٤١ .

الرجل وقد رفع طرفه إلى السماء «إلهي - أتيت بهؤلاء ليسخطوني عليك . لك الكرامة والعتي أن لا أخالفك أبداً» .

ثم خرج إلى بيت المقدس هو ومحمد بن واسع ومالك بن دينار ، فلما كانوا بين الرصافة وحمص - سمعوا منادياً من بين الرمال يصيح : يا محفوظ يا مستور . أعقل . في ستر من أنت . فإن كنت لا تعقل فاحذر الدنيا ، وإذا كنت لا تحسن أن تحذرهما ، فاجعلها شقة وانظر أين تضع رجلك .

ومر مع مجموعة من أصحابه وهو في سفرة له ، براهب في صومعته ، فطلب من أصحابه أن يتوقفوا قليلاً . ثم نادى الراهب : يا راهب . فكشف سترًا على باب صومعته : فقال : يا عبد الواحد ابن زيد . إن أحببت أن تعلم علم اليقين فاجعل بينك وبين الشهوات حائطاً من حديد^(١) ثم أرخى الستر . وقد رأينا من قبل وسرى كثيراً في حياة المتصوفة - أمثال تلك المواقف الدارماتيكية المتصنعة عن راهب يتكلم مع مجموعة العباد . يكشف لهم عن جوهر العبادة ، أو سر التصوف . وهنا نراه يلقي عليه بسر « علم اليقين » هو أن تحجز دونك الشهوات ، فلا تخترق الشهوة هذا الحاجز الحديدي . ويذهب إلى الكوفة . بعد أن راوده رؤيا سمع فيها صوتاً يقول له : رفيقك في الجنة ميمونة السوداء . فلما سأل عن ميمونة قيل له : إنها مجنونة ترعى أغناماً ، وتقضى أوقاتها في الجبال مع غنيتها . فلما ذهب إليها ، رآها قائمة تصلي ، وقد تركت أغنامها وقد اختلطت بها بعض ذئاب الصحراء فلا الذئاب تفرس الغنم ، ولا الغنم تخاف الذئاب . ولما رأت ميمونة رجلاً مقبلاً - أوجزت صلاتها ثم نظرت إليه وقالت : ارجع يا ابن زيد ، ليس الموعد ههنا ، إنما الموعد ثم . فسألها رحمتك الله ، وما يعلمك أفي ابن زيد . فقالت : أما علمت أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . فطلب منها أن تعظه . فقالت : واغصبا - لواعظ يوعظ . ثم قالت : يا ابن زيد لو وضعت معايير القسط على جوارحك ، لخبرتك بمكتوم مكنون ما فيها يا ابن زيد إنه بلغني : ما من عبد أعطى من الدنيا شيئاً ، فابتغى إليه ثانياً ، إلا سلبه الله حب الخلوة معه ، ويبد له بعد القرب ، البعد ، وبعد الأانس ، الوحشة .

ثم أنشأت تقول :

يا	واعظاً	قام	لاحتساب	يزجر	قوماً	عن	الذنوب
تنهى -	وأنت	السقيم	حقاً	هذا	من	المنكر	العجيب
لو كنت	أصلحت	قبل	هذا	غيك	أو	نبت	من قريب

كان لما قلت يا حبيبي موقع صدق من القلوب
تنهى عن الغي والتمادي وأنت في النهي كالمريب

فقال لها : إني أرى هذه الذناب مع الغم ، لا الغم تفرغ من الذناب ، ولا الذناب تأكل
الغم . فاسر هذا . فقالت : إليك عني ، فإني أصلحت ما بيني وبين سيدي ، فأصلح بين الذناب وبين
الغم (١) .

ومن المحتمل أن تكون القصة رمزية غير حقيقية ، ولكنها تين لنا طريق السلوك الذي كان على
عبد الواحد بن زيد أن يخطه ، أن يصبى الدنيا من جوارحه ، وأن يتركها تركاً مطلقاً ، فلا تراوده وإلا
تبدل قربه بعداً وأسنه وحشة - فإذا صلح القلب ، صلحت لك الدنيا ، وأطاعتك الكائنات أناسي
وحيوانات . . . فعاشت - في اطمئنان وسلام . . . الذناب مع الأغنام . وهذه التصفية التي حاول أن
يعانها هي روح « التصوف » فيكون الصوفي عين الله وبده . وهل تلك المعاناة التي كان يعانها
عبد الواحد بن زيد هي ما دعت ابن تيمية - فيما بعد - إلى أن يعتبره الصوفي الأول .

وازداد بث عبد الواحد بن زيد وعبادته ، فإذا أقبل سواد الليل ، بدا « وكأنه فرس رهان مضمر
متحزم . ثم يقوم إلى محرابه . . . عابداً منهجداً متحنناً » فكانه رجل مخاطب (٢) .

ويتبدى له جوهر التصوف في ليلة نام فيها عن قراءته ، تبدت - كما يقول سليمان الداراني - في
صورة امرأة جميلة ، عليها ثياب خضر ، وفي رجليها نعلان ، والنعلان يسبحان ، والزمامان يقدسان ،
وهي تقول له : يا بن زيد جد في طلبي ، فإني في طلبك .

ثم أخذت تترنم :

من يشتريني ومن يكن سكني يأمن في ربحه من الغبن

وسأل عبد الواحد بن زيد : ما الثمن ؟

فأجابت

تودد الله مع محبته وطول فكر يشاب بالحزن

وسأل : لمن أنت . . .

فأجابت

لألك لا يرد لي ثمناً من مخاطب قد أتاه بالثمن

(١) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ١٥٨ - ١٥٩ وابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ١٢١ ، ١١٢ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢٤٢ .

وانتبه عبد الواحد بن زيد ، وقد أيقن أن الطريق طويل ، وأن عليه ألا ينام الليل (١) . وانضح له - أن الغاية النهائية من العبادة هي المحبة الإلهية المترجمة بالتأمل الحزين . ومات ابنه ، وكان من العباد ، فوجد عليه وجداً شديداً ، وذكره يوماً ، فدمعت عيناه وقال : لقد نفص على الحياة بعده . ولكنه استرجع وقال : هل الحياة إلا متنغصة (٢) .

ومضت الأحزان والرؤى تجلي قلبه : فيقف في المسجد قائلاً : يا إخوانه ألا تبكون شوقاً إلى الله عز وجل ، ألا إنه من بكى شوقاً إلى سيده ، لم يجرمه النظر إليه . . . يا إخوانه ألا تبكون خوفاً من النيران . ألا إنه من بكى خوفاً من النار أعاده الله منها : يا إخوانه ألا تبكون خوفاً من شدة العطش يوم القيامة ، يا إخوانه - ألا تبكون على الماء البارد أيام الدنيا ، لعله يسقيكوه في حظائر العرش مع خير الندماء والأصحاب من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً (٣) ونلاحظ هنا أنه أثار مشكلة الشوق ، ومشكلة رؤية الله ، والنظر إلى وجهه الجميل . . . ولعل هذا أيضاً ما حجب ابن تيمية فيه . وقد أقام ابن تيمية نوعاً من التصوف ، منتهاه رؤية الله في الآخرة ، والتلذذ بالنظر إلى وجهه .

وتزداد عظمات عبد الواحد بن زيد قوة ، فكانت التامس تصعق أثناء موعظته ، ويموت البعض منهم (٤) . بل تذكر كتب الطبقات أنه كان يعظ يوماً ، فناداه رجل من ناحية المسجد : كف عنا يا أبا عبيدة . فقد كشفت قناع قلبي « ولم يقطع عبد الواحد موعظته بل استمر فيها ، فحشرج الرجل حشرجة الموت ، ثم مات (٥) .

دعا عبد الواحد بن زيد إلى الحزن والبكاء كما دعا إلى الجوع « يا معشر إخواني ، عليكم بالخبز والملح ، فإنه يذيب شحم الكلى ويزيد في اليقين » ويقول « من قوى على بطنه ، قوى على دينه ، ومن قوى على بطنه ، قوى على الأخلاق الصالحة ، ومن لم يعرف مضرته في دينه من قبل بطنه ، فذاك رجل في العابدين أعمى » (٦) ولكنه طلب هذا ، لكي يصل الإنسان خلال عبادته إلى تودد الله وتشوقه ، لرؤية وجهه الكريم - كما قلنا من قبل - ويزداد شوقاً لله فيقول « وعزتك لا أعلم لحبتك فرحاً دون لقاءك ، والاشتفاء من النظر إلى جلال وجهك في دار كرامتك ، فيا من أحل الصادقين دار

(١) أبو نعيم : الحلية . . . ج ٦ ص ١٥٧ - ١٥٨ وابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٣٤٣ .

(٢) أبو نعيم : الحلية . . . ج ٦ ص ١٦٠ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٦١ ، وابن الجوزي . صفة ج ٣ ص ٢٤٢ .

(٤) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢٤١ .

(٥) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ١٥٩ - ١٦٠ وابن الجوزي . صفة ج ٤ ص ١٠ .

(٦) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ١٥٥ - ١٥٧ .

الكرامة ، وأورث الباطلين منازل الندامة ، اجعلنى ومن حضرى من أفضل أوليائك زلى ، وأعظمهم منزلة وقربة» (١) .

وقد رأينا يتكلم عن الشوق والقرب ، فهل لم يذكر الرضا - إن العابد الخائف آمن إلى الرضا آخر الأمر . وفى لغة صوفية علوية أخذ يقول « الرضا باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ومستراح العابدين » ، بل إن الرضا أعظم من الصبر « ما أحسب شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا ولا أعلم درجة أرفع ولا أشرف من الرضا ، وهى رأس المحبة ثم يقول « أتراك تصبر لمحبهته عن هواك ، فيخيب صبرك . لقد أساء بسيد الظن من ظن به هذا » ثم بكى وقال « بأى أنت يامسيغ نعمة غادية ورائحة على أهل معصية ، فكيف يياس من رحمة أهل محبه » .

وانتهى الخوف . . . وقد سأله زياد النخبرى : ما منتهى الخوف : فقال : إجلال الله عند مقام السوءات : فلما سأله : فما منتهى الرجاء : قال : تأمل الله على كل الحالات « وحين تأمل الله فى كل الحالات . . . استسلم الإستسلام المطلق للإرادة الإلهية ، فعاد - سواء عنده - أن يبتى فى الحياة ، لينفذ أوامره ونواهي ، أو أن يخرج إلى الله شوقاً إليه . إنه فى المشيئة ، مستسلماً خاضعاً ، وقد فنى عن إرادته (٢) .

وأحسن أحوال العابد : موافقة الله ، حباً فى أمره ومشيتته (٣) فلو فرض لحمه بالمقاريض - كما تعلم من مجذوم فى نواحي البصرة ، ونشرت عظامه بالمناشير « ما ازددت لك إلا حبا فاصنع بى ما شئت (٤) » .

كان عبد الواحد بن زيد إذن من أوائل من نادوا بالمحبة الإلهية ، وصوروها على أنها نهاية طريق العابدين . وقد أثر فى الصوفية من بعده حتى اعتبر - كما قلت - الصوفى الأول . ويذهب السراج إلى أن عبد الواحد كان من أوائل من نطق باسم الصوفية ، بل وصفهم ، فحين سئل « من الصوفية عندك . فقال : القائمون بعقولهم على همومهم ، والماكفون عليها بقلوبهم ، المعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم ، هم الصوفية » (٥) ومع ظهور الانتحال فى النص : إلا أنه يدل على ما كان للرجل من مقام كبير لدى أجيال الصوفية من بعده ، وقد ترك لهم ميراثاً فى الحب الإلهي ، لم يصل إلى صورته الكاملة

(١) نفس المصدر : ج ٦ ص ١٥٦ .

(٢) نفس المصدر : ج ٦ صفحات ١٥٦ - ١٦٣ - ١٦٠ .

(٣) الشعرائى : ٤ طبقات ج ١ ص ٣٩ - .

(٤) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١١ .

(٥) السراج الطوسى : اللمع ص ٤٥ .

ولم يتخل عن الجانب الحسى لرؤية الوجه الإلهى . ولكنه أبان طريق المحبة لمعاصرتة رابعة القيسية المشهورة برابعة العدوية . بل كان أستاذها .

• • •

٢ - عتبة الغلام ، المحب الشهيد :

غير أن كأمس المحبة قد تجوهر فعلاً عند عابد آخر من عباد البصرة ، وصديق لعبد الواحد بن زيد وأستاذ لرياح بن عمرو القيسى ، وهو عتبة الغلام . وسيكون لتلميذه رياح أكبر الأثر في حياة رابعة - كما سنين فيما بعد . اسم عتبة الحقيقي - عتبة بن أبان بن صمعة ، وكان عربياً شريفاً من عوذ^(١) ولكنه سمي بالغلام - ويقول تلميذه رياح بن عمرو القيسى « كان نصفاً من الرجال ، ولكننا كنا نسميه الغلام ، لأنه كان في العبادة غلام رهان » وقد اشتهر عتبة الغلام بالحزن ، حتى سئل صديقه عبد الواحد بن زيد « بمن تشبه حزن هذا الغلام » فقال « بحزن الحسن »^(٢) وكان عتبة من « الخائفين » وانتشرت قصص خوفه وبكائه في كتب الطبقات . وقد أورد لنا أبو نعيم الأخبار الطويلة عن حزنه وزهده ، بحيث اعتبر « من نساك البصرة » ومن أصحاب الفلق - وفلق الخبز هي الكسرة ، وكان يتعشى كل ليلة بفلقة ويتسحر بأخرى . وكان يصوم الدهر ويأوى السواحل والجباين وكان وهو العربي الشريف - كما قلنا - يقوم على خدمة العباد ، كما كان يمتنع عن الطعام إذا استمع إلى واعظ يذكره بدار الخلود . ويذكر سلم العباداني - أحد عباد عبادان - أن صالحا المرى وعتبة الغلام وعبد الواحد بن زيد وسلا الأسوارى قدموا عليه بساحل عبادان وأعد لهم طعاماً ، فلما أقبلوا ، إذ ببعض أولئك المطوعة ، تمر على ساحل البحر رافعاً صوته يترنم .

ويلهيك عن دار الخلود مطاعم ولذة نفس غبها غير واقع

فصاح عتبة صبيحة وسقط مغشياً عليه ، وبكى القوم ، ورفع الطعام ، وماذاق القوم منه شيئاً^(٣) .

أما ملبسه ، فكان يلبس الشعر تحت ثيابه ، فإذا كان يوم الجمعة ، ألقاه ، ولبس من صالح الثياب . أى أن الرجل كان يستن سنة الإسلام في التزين للجماعة وكان العباد يذكرون

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٢٢٢ وابن الجوزى صفة ج ٣ ص ٢٨٢ .

(٢) نفس المصدر : ج ٦ ص ٢٢٦ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

عنه وعن صاحبه يحيى الواسطي « كأنما ربتهم الأنبياء » (١) .

قضى عتبه الغلام إذن شطراً من حياته منصهراً في الحزن والبكاء . ولكن هذا العابد الذي أُنفي عمره في هذه الأحزان ، وهذا البكاء ، ما يلبث أن يتقلب في نيران الحب الإلهي .

وقد كان في إحدى سياحاته في بادية البصرة ، فرأى خباء أعراب قد زرعوا ، وإذا خيمة في وسط مزرعة ناضرة ، وفي الخيمة امرأة عليها جبة صوف ، مكتوب عليها لا تباع ولا تشتري فكلما ، فلم ترد عليه . وبينما هو مول عنها سمعها تقول :

زهد	الزاهدون	والعابدون	إذ	لمولاهم	أجاءوا	البطونا
أسهروا	الأعين	القريجة	فيه	فضى	ليلهم	وهم ساهرونا
حيرتهم	محبة	الله	حتى	علم	الناس	أن فيهم جنونا
هم ألبا	ذوو	عقول	ولكن	قد	شجاهم	جميع ما يعرفونا

فدنا منها وسألنا لمن الزرع . فقالت : لنا ، إن سلم . فتركها ومضى . . . ثم نزل المطر . . . فأفسد الزرع فعاد إليها فرأها تقول « والذي أسكن قلبي من طرف صفاء صورته ، محبته ، إن قلبي ليقن منك بالرضا » . ويذكر هو نفسه أنه عاد إلى البصرة - بتأمل كلامها ، وقد هيج فيه الشوق (٢) . فرأى أن الدواء هو الدواء ، ما دام في مقام الرضا .

وتساوى عنده عذاب الله ورحمته . . . إذا كان الله هو المحب الأسمى فينادى « إن تعذبني فأني لك محب . . . وإن ترحمني فأني لك محب » . . . ويرفع رأسه الليالي الطوال « سيدى إن تعذبني فأني أحبك ، وإن تعف عني فأني أحبك » وتتساوى عنده أحداث الحياة ، وتقلباتها وهو في مقام الحب « من سكن حبه قلبه ، فلم يجد حرّاً ولا برداً » ولكنه يتذكر يوم العرض على الله فيقول « قطع ذكر يوم العرض على الله أوصال المحيين . . . تراك مولاي تعذب محبيك ، وأنت الحى الكريم » ويعلم أن طريق المحبة طويل . . . فيقول « سبحان جبار السماء ، إن المحب لنى عناء » ثم يقرون المحبة بالمعرفة « من عرف الله أحبه ، ومن أحب الله أطاعه ، ومن أطاع الله أكرمه ، ومن أكرمه أسكنه في جواره ، ومن أسكنه جواره فطوباه وطوباه ، وطوباه وطوباه » ولم يعد ينشئ الآخرة فكان يقول إنها يوم الفرح الأكبر

(١) نفس المصدر: ج ٦ ص ٢٣٥ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٣٤ ، ٣٥ .

« العرس في الدار الآخرة ^(١) » وقد كان يغشى من قبل الدار الآخرة ويتمنى أن يحشر بين حواصل الطير ويطون السباع .

وكان عتبة يعيش دائماً في حال الصعق ، يلقي بالخاطرات والواردات التي ترد عليه ، ثم يغشى عليه وتصدر عنه الكرامات المتعددة ، . . . وقد ترك أثره الكبير في جيل من العباد والزهاد والصوفية . . . بل كان مخلصاً بن الحسن ، وكان قد صحب إبراهيم بن أدهم وعتبة الغلام ^(٢) يفضل عتبة على إبراهيم بن أدهم . وقد مات عتبة شهيداً في قتال الروم بالشام (عام ١٧٧هـ) فحقق بجانب « الولاية » معنى من أكبر المعاني وهو « الشهادة » في سبيل الله .

٣- يحيى البكاء . انتهاء النار :

كان عتبة الغلام لا يفارق صديقه وصاحبه يحيى الواسطي . ونحن نتساءل : هل يحيى الواسطي هذا هو يحيى البكاء ، وقد رأينا يحيى البكاء هذا يظهر في حياة مالك بن دينار ، ورأينا كيف كره مالك بن دينار نسبة البكاء إليه . وقد قيل إن يحيى البكاء هذا هو يحيى بن أبي خليل بن سليم ويحيى بن مسلم . لكن يحيى البكاء توفي عام (١٣٠هـ) ^(٣) - بينما توفي عتبة الغلام (عام ١٧٠هـ) . فلا يعقل إذن أن يكون يحيى البكاء هو يحيى الواسطي الذي صاحب عتبة مدة طويلة من الزمان . ويمدنا الذهبي بمعلومات عن يحيى الواسطي هذا - فهو يحيى بن سليم أو ابن أبي سليم - أبو بلج الفزارى الواسطي ويذكرون عنه « كان يذكر الله كثيراً » وكان فيه شعبة وبدل على هذا روايته عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس أن النبي أمر بسد الأبواب إلا باب علي بن أبي طالب . غير أن أهم ما ألقى به يحيى الواسطي في تاريخ الحياة الروحية الإسلامية هو روايته للحديث « ليأتين على جهنم زمان تحفق أبوابها ليس فيها أحد » ^(٤) ولهذا الحديث أهمية كبرى - سواء صح أو لم يصح - في تطور الحياة الفلسفية الحقيقية عند المسلمين . إننا نعلم أن أبا المذيل العلاف المعتزلي قد اتخذ هذا الحديث سنداً في نظريته عن حدوث الحركة وفنائها ، فأبدع لنا نظرية في فناء الخلق ، فناء الجنة والنار ، وتوقف حركاتها . أما في نطاق الروح ، فإن انتهاء النار وخفان أبوابها ، . . . إنما هو دلالة على العفو الإلهي ، والمحبة الإلهية ، التي تشمل العصاة جميعاً . . . وسيامل الصوفية - فيما بعد - في هذا العفو الإلهي ، رمز المحبة الإلهية ،

(١) نفس المصدر : ج ٦ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ وابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ٢٣٧ .

(٣) الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٤ ص ٣٨٢ - ٤٠٨ - ٤٠٩ - ٤١٧ .

(٤) نفس المصدر ج ٤ ص ٣٨٤ - ٣٨٥ .

الذى سيتخلل العذاب الإلهى ، ويحل محله ، ومن العجب أن ابن تيمية - مفكر السلف والحنبلئى المتشدد ، آمن أيضاً بهذا الحديث . . . وأعلن فى نظريته فى الحب الإلهى ، أن النار ستخلو من ساكنها آخر الأمر ، وتعم المحبة الإلهية - أهل الخلدئى جميعاً . وفى هذا دليل واضح على أن نظرية الحب الإلهى أصيلة فى الإسلام ، تستند على النص أولاً ، وتحاول أن تتعمق فيه ، وتستخرج منه نظريات متكاملة مع روحه . ثم تبحث فى التراث القديم ، عن خطرات ولحاحات تؤيده ، ثم تنتهى إلى صورة ممتزجة فيها كل النظريات . وسلمس فى الفصل التالى نظرية الحب الإلهى البحث فى صورته الأولى فى القرن الثانئى فى مدرسة البصرة .

الفصل السابع

نظرية الحب الإلهي البحث

في القرن الثاني الهجري

قد رأينا في الفصول السابقة نظرية في المحبة الإلهية أو لمحات فيها . بدأت في القرن الأول وتطورت في القرن الثاني بين هؤلاء الخائفين من تلاميذ الحسن . وازدادت لمحات الحب شيئاً فشيئاً في قلوب العابدين . وكان عبد الواحد بن زيد وعتبة الغلام وبيحي الواسطي ممثلين لهذا الاتجاه الجديد . تخلل الحب الإلهي أحزانهم . ورأى هؤلاء جميعاً بين ضباب الدموع ، البهاء الإلهي ، سبحات الوجه الجميل الأقدس ، فأحبوه ونظروا إليه في بهر وخشوع . ولكن الخوف بعدما كان يملكهم ، لم يعرف واحد منهم اطمئنان القلب كاملاً إلى الرضا ، ومناجاة الحبيب للمحبيب ، متخلصاً من أوصار الخوف ، وفزع النار . غير أن الحب - وهو جوهر التصوف - بدأ يتغلغل بعمق ونفاذ قلوب العباد . وقد أجمع المؤرخون على أن الفكرة اتضحت لدى مجموعة من العباد أطلق عليهم محدث مشهور هو أبو داود السجستاني المتوفى عام ٢٧٥ هـ ، لقب « الزنادقة » ونص أبي داود هو « رياح بن عمرو القيسي - رجل سوء هو وأبو حبيب وحيان الحريري ورابعة رابعهم في الزنادقة » . أما الذهبي فقال « زهاد المبتدعة (١) » ومن الواضح أن هؤلاء - ممن تكلموا عن الحب الإلهي - وامترج عند البعض منهم بالخوف والأحزان ، وعند البعض الآخر كان حباً خالصاً . وقد عرفوا - منذ ذلك الوقت - في أوساط المحدثين « بالزنادقة » أو زنادقة الزهاد أو زنادقة الصوفية . وسيأتي الملطى بعد ، ويعتبرهم فريقاً من الزنادقة ، ويسمهم « الروحانيين » وينسبهم إلى « العبدكية » نسبة إلى عبدك الصوفي - وهو شخصية كوفية متأخرة قليلاً عن هذا العصر ، ثم صنف من الروحانية على رأسهم رياح وكليب . وصنف ثالث من الروحانية على رأسهم ابن حيان (٢) . وسنعود إلى نصوص الملطى بعد قليل . ويضاف إلى هؤلاء أيضاً ممن تغنوا بالحب الإلهي - حبيب العجمي ، وعبد الواحد بن زيد - وأبو العتاهية الشاعر (٣) . ولا شك أنه

(١) الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٦٢ .

(٢) الملطى : التنبيه ص ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ .

(٣) الدكتور أبو العلا عفيفي : التصوف : الثورة الروحية في الإسلام ص ٢٠٩ .

ينبغي أن نأخذ بحذر اتهامات المحدثين للصوفية ، كما ينبغي أن نفعل هذا أيضاً أمام موقف سلفي حثوي كالملطي ، يكتب عن زهاد أو عباد يتكلمون في الحب الإلهي لأول مرة في تاريخ الحياة الإسلامية .

وقد عرضنا حياة حبيب العجمي ، وأفكاره ، ولم نجد فيها ظلاً لزندقة ولا ابتداع . بل كان حبيب من الناحية السمعية ، محدثاً ممتازاً ، ولم تشبه شائبة ، اللهم إلا إذا كانت سياحاته مدخلاً لاتهامه بالزندقة ، وقد ذكر صاحب خلاصة الذهب المسبوك أنه خرج عما كان من ملكه وتعبده وصاح «^١» وكانت سنة رهبان الزنادقة الهنود - وقد تكلمنا عنهم من قبل - كما كان أيضاً تعبيره عن الحب الإلهي . وهو فارسي الأصل ، وصل له بنظرية الحب في التراث المانوي ، أو بمعنى أدق في التراث المندائي ، وكانت المندائية حول البصرة والكوفة . ألسنا في هذا نحمل الرجل فوق ما يحتمل ونضمن كلماته وتعبيراته ما ليس فيها .

أما عبد الواحد بن زيد (المتوفى عام ١٧٧ هـ) ، فقد رأيناها واعظاً ، تنطلق منه شرارات الموعظة ، مخوفاً بالنار ، ثم ينكفي على خوفه اللبائي الطوال ويعلم في ثنايا صرخات مواعظه كلمات ذات معدن جوهري - في الحب الإلهي - فهل تأثر بالمندائية من ناحية ، وبالمسيحية من ناحية ، وبخاصة أنه كان يتردد أحياناً على الأديرة ، حقاً ، إنه هو وغيره من العباد قد ترددوا على الأديرة وخطبوا الرهبان - في صورة تمثيلية - ذكرها المؤرخون . ولكنهم كانوا يناون عن كل ما يناهض قرآنهم وحديثهم . فإذا ذكر القرآن النار وعذابها ، وذكر الإنجيل هذا ، فلا بأس أن يأخذوا منه أيضاً ، وإذا ذكر القرآن المحبة الإلهية ، وأن الله يحب خلقه ، وخلقته يبادلونه الحب ، فلا بأس أن يأخذوا نفس هذه الفكرة من الإنجيل . كان القرآن - كما قلت - يردد لهم دائماً أنه إنما أتى مصداقاً للتوراة والإنجيل الحقيقيين ، كان اختلافهم مع المسيحية في لاهوتها ، وإنما اتفقت الطرق في غير ذلك اللهم إلا إذا خالف الطريق المسيحي حكماً قرآنياً أو سنة مؤكدة . ولست أنكر أبداً أن يكون عبد الواحد بن زيد قد أعجب بطريقة هؤلاء الرهبان ، ترهدهم وتعبدهم وانقطاعهم لله ، ولعل هذا مما دعا بعض أصحابه لبناء « دويرة » في البصرة . وقد أرخ لنا هذا ابن تيمية حين يقول « وأول ما ظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة أصحاب عبد الواحد بن زيد من أصحاب الحسن . وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ، ما لم يكن في سائر الأمصار . ولهذا كان يقال فقه كرفي ، وعباد بصرية » ولم يهاجم ابن تيمية عبد الواحد بن زيد ولا أصحابه . إنه يكرر أن الأمور الصوفية التي فيها زيادة في العبادة والأحوال الصوفية قد انبثقت من البصرة ، ويعرض لافتراق النامس ، أي افتراق علماء المسلمين

(١) عبد الواحد سبط الأريط : خلاصة الذهب المسبوك مختصر سير الملوك ص ٣١ .

في أمر هؤلاء البصريين الذين زادوا في أحوال الزهد والورع والعبادة أكثر مما فعل الصحابة . فالبعض يؤيدهم ، والبعض ينكر عليهم . ثم يضع - وهو الحنبلي المتشدد رأيه « والحقيقة أنهم في هذه العبادات والأحوال مجتهدون ، كما أن جيرانهم من أهل الكوفة مجتهدون في مسائل القضاء والإمارة (١) » . فكان ابن تيمية إذن لم ير في منهج عبد الواحد بن زيد وأصحابه خروجاً على السنة ، كما فعل أبو داود السجستاني من قبله حين دعا هؤلاء « بزنادقة الزهاد » أو كما فعل تلميذه الذهبي من بعده حين دعاهم « بالزهاد المتبدعة » . بل إنه يراهم مجتهدين .

* * *

١- رياح بن عمرو القيسي ونظرية الحلة :

ولقد كان أول هؤلاء الذين نسبوا للزنادقة وأكثرهم ذكراً - هو أبو المهاجر رياح بن عمرو القيسي (المتوفى عام ١٧٧هـ) وقد ذكر ابن تيمية أنه من أصحاب الحسن البصري ، ولعله عرف الحسن وتردد عليه وهو حدث صغير . ولكن ارتبطت حياة رياح بن عمرو بتلامذة الحسن ، كما كان من أصدق رجال عبد الواحد بن زيد وعتبة الغلام وواعظ وقاص كبير أيضاً من حلقة الحسن ، هو شميظ بن عجلان . بل يكاد يكون رياح من حاملي أقوال شميظ (٢) .

وقد أجمعت طبقات الصوفية على كون رياح أيضاً من الخائفين يتردد على الجبانات ، ويقضى الليالي الطوال في التعبد وينشج بالبكاء ويصيح « إلى كم يا ليل - يانهار تحطان من أجلى ، وأنا غافل عما يراد بي - أنا لله - أنا لله » وقد ذكر هو نفسه أن له نيفاً وأربعين سنة قد استغفر لكل ذنب مائة ألف مرة ، وكان يأكل قليلاً ، ويسأله الناس ، فيجيب « كيف أشبع في أيام الدنيا ، وشجرة الزقوم طعام الأثيم بين يدي (٣) » أي أن رياحاً اعتبر الحلال « إنمأ » . إنه طعام « الأثمين » يغذيهم به في هذه الدنيا ، كما يغذيهم به في الآخرة . . . وهنا مدخل لرجال الحديث فيما بعد - لاتهمه « بالابتداع » « وبالزندقة » كما أنه يردد قول مالك بن دينار بأن الرجل لا يبلغ منزلة الصديقين ، حتى يترك زوجته كأرملة . ويأوى إلى مزابيل الكلاب . . . ويراه الناس في ريف البصرة . . . يأكل خبزاً وملحاً - فيدهشون ويسألونه فيجيب « . . . حتى تأكل الشواء ، والعرس ، في الدار الآخرة (٤) » فرياح إذن

(١) ابن تيمية : الصوفية والفقراء ٣ ، ٤ ، ١٢ ، ١٣ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٣ ص ١٢٥ - ١٣٣ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٩٤ وابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٩٤ .

من الخائفين ، ومن البكائين . وتقول عنته أو عمة - وهي إحدى العابدات رأيت رياح بن عمرو القيسى ليلة خلف المقام ، فذهبت ، فممت خلفه حتى أزحفت ، ثم اضطجعت وهو قائم ، فأنا أنظر إليه ، فقلت بصوت حزين : « سبقني العابدون ، وبقيت وحدي . والهدف نفساه » فشهو رياح ، وانكب على وجهه ، ممشياً عليه ، وامتلاًفه رملاً ، فما زال كذلك ، حتى أصبحنا . ثم أفاق (١) كان الرجل إذن يعيش في حزن دائم مقيم ، ولعله كان يستمع إلى أخيه عوين بن عمرو القيسى وكان أيضاً من الزهاد يروى عن رسول الله : « اقرءوا القرآن بحزن فإنه نزل بالحزن (٢) » . ولم يعيش رياح القيسى عزياً ، ولم ينا عن الزواج ، ولم يكن يترك زوجته كأرملة ويأوى إلى مزابيل الكلاب . إن ابن الجوزي يذكر أن شميظ بن عجلان القاص زوجة امرأة عابدة فبني بها ، ولما أصبح قامت إلى عجيبها ، وراها هو تعمل فطلب منها أن تبحث عن خادم ، فقالت « إنما تزوجت رياحا القيسى ، ولم أرى تزوجت جباراً عنيداً » ولما أقبل الليل ، نام ، ليختبرها ، فقامت للعبادة ريع الليل ، ثم نادته : قم يارياح . فقال : أقوم . ولم يقم . ثم قامت الربيع الآخر ونادته : قم يارياح . فقال أقوم : ولم يقم أيضاً . فقامت الربيع الأخير ثم نادته فقالت : قم يارياح . فقال أقوم : فقالت . مضى الليل وعسكر المحسنون . وأنت نائم . . . لبت شعري من غربي بك يارياح . . . وقامت الربيع الباقي حتى انصباح ، بينما كان هو لا يزال نائماً .

وكانت امرأة رياح تنظر إلى السماء ، وتشهو ، ثم يغمى عليها ، وإذا اغتم لأمر من أمور الدنيا . أخذت شعرة من الشعيرات وقالت : أراك تغتم لأمر الدنيا ، والدنيا أهون على من هذه « وكان يذكر هو أنه كانت إذا ضلت العشاء الآخرة ، تطيبت وليست أحسن ثيابها . ثم تأتيه فتقول « لك حاجة » فإن قال « نعم » كانت معه ، وإن قال « لا » قامت فتزعت ثيابها ، ثم صفت بين قدميها ، حتى تصبح (٣) . وأود أن أنتهي من هذا كله أن رياحاً القيسى لم يخرج عن سنة الزواج ، ولم يتزهد تزهد الرهبان النصراني ، أو رهبان المانوية والمندائية - نساك الفرس ، ولم يحى « كالحكيم الهندي العاري » بل إنه لم يعيش في دويرة الصوفية التي قيل إن أصحاب عبد الواحد بن زيد قد بنوها . وكان له « بيت » يأوى إليه . ويتبين لنا هذا من رواية الحارث ابن سعيد من زهاد البصرة عن بكاء رياح بن قيس ، يقول : أخذ بيدي رياح القيسى يوماً . فقال : هلم يا أبا محمد حتى نيكى على ممر الساعات ونحن على هذه الحال « وخرجت معه إلى المقابر . فلما نظر إلى القبور ، صرخ ، ثم خر ممشياً عليه . فجلست والله عند رأسه أبكى . فأفاق وسألني : ما ييكبك . قلت : لما أرى بك قال : لنفسك فابك . ثم صاح :

(١) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٦ .

(٢) نفس المصدر : ج ٦ ص ١٩٢ - ١٩٣ وابن الجوزي : صفة ج ٤ ، ص ١٨ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٢٩ و ٣٠ .

وانفساه ، وانفساه . ثم غشى عليه . فرحمته والله مما نزل به . فلم أزل عند رأسه حتى أفاق . فوثب وهو يقول : تلك إذا كرة خاسرة . تلك إذا كرة خاسرة . ومضى على وجهه ، وأنا أتبعه لا يكلمنى . حتى انتهى إلى منزله ، فدخل وصفق بابه ورجعت إلى أهلى « (١) ، كان للرجل إذن منزل بلجأ إليه ، ويعلق بابه دون الناس ، وكان له زوجة ، وكان يستمتع بزوجه ، كما كانت سنة عباد المسلمين ، كما كانت له خلواته مع الله . وقد ذكر هو عن أحد العباد « ثور بن يزيد » أنه قرأ في التوراة أن عيسى عليه السلام قال : يا معشر الخواريين - كلموا الله كثيراً - وكلموا الناس قليلاً . قالوا : كيف نكلم الله كثيراً . قال : إخلوا بمناجاته - إخلوا بدعائه « وكان يكره ذكر الدنيا - متشبيهاً بالحسن البصرى نفسه نقلاً عن العابد الكبير حسان بن أبى حسان وقد أكثر رباح من الرواية عنه « والله ما سمعت الحسن ذاكراً الدنيا في مجلسه قط » وأخيراً نراه قد اتخذ غلاماً من حديد ، فكان إذا جنه الليل ، وضعه في عنقه ، وأخذ يبكى ويتضرع حتى يصبح الصباح (٢) .

ونعود إلى لمحاته الصوفية . إنه كان يفتش عن « نور الحكمة » فكان يقول « كما لا تنظر الأبصار إلى شعاع الشمس ، كذلك لا تنظر قلوب محبى الدنيا إلى نور الحكمة أبداً » (٣) ولا يمكن أبداً التعسف في التفسير ، فنقول إن ذكره لكلمة النور يصله بالمانوية أو المندائية ، إنما يقصد بنور الحكمة « تنقية القلب من حب الدنيا ، حتى تمتلئ بذكر الله » ويفسرها قوله « عجبنا للخليفة كيف أنست بسواك ، بل عجبنا للخليفة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك » ، فنور الحكمة إذن هي امتلاء القلب بذكر الله ، بحيث لا تأنس بغير الله (٤) .

ونحن نتساءل : إنه يذكر كلمة الأنس بالله ، ولا يذكر كلمة الحب ، وقد ذكرها العدد الكبير من العباد من قبله ، وستذكرها معاصرتنا وصديقتنا - رابعة العدوية . فهل تخرج عن ذكرها متابعة لمالك ابن دينار أستاذه الكبير ، وابن دينار - في بعض الروايات - كان ينهى عن ذكر كلمة الحب (٥) . عجباً . إننا نرى الكلمة تظهر في محادثة له مع رابعة العدوية . فقد رأته يقبل صبياً من أهله ويضمه إليه فقالت في دهشة : أتجبه ؟ قال نعم . قالت . ما كنت أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره ، تبارك اسمه . فصرخ رباح ، وخر مغشياً عليه . ثم أفاق وهو يحسح العرق عن وجهه وهو

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٩٣ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٩٥ - ١٩٦ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٨٠ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٩٤ - ١٩٥ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢٧٩ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٩٤ - ١٩٥ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٣٧٩ .

(٥) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٠ .

يقول « رحمة منه تعالى ذكرها ، ألقاها في قلوب العباد للأطفال ^(١) فالرجل إذن لا يعلن حبه لله ، وهو محب ، بل السنة أهم وأسمى . أن يمسح على رؤوس الأطفال ويقبلهم ويداعبهم . وحين يسأله الأبرد بن ضرار من عباد بني سعد بالبصرة « يا رياح . هل طالت بك الليالي والأيام ؟ » فقال له بم ؟ قال : بالشوق إلى الله فسكت ولم يرد ، وأخذ صديقه الأبرد وذهب به إلى رابعة . فقال لها : تلتنى بثوبك ، واستترى بجهدك ، فقد سألتني الأبرد مسألة ، لم أقل فيها شيئاً فقالت : ما سألك ؟ فقال لها : قال لي ، طالت بك الأيام والليالي بالشوق إلى لقاء الله . فقالت رابعة : ماذا قلت ؟ قال : لم أقل نعم فأكذب . ولم أقل : لا فأهجن نفسي . فسمع رياح تخربق قبيصها من وراء ثوبها - وهي تقول لكني نعم ^(٢) . وبعد : فهل كان يتحرج عن ذكر الشوق إلى لقاء الله ، حتى لا يتمنى الموت . اتباعاً للسنة . أم كان يريد أن تعبر تلميذته العابدة ، المنصهرة في حب الله عن آرائه هو . أم كان يريد أن يرفع مكانة « رابعة » في البصرة فتكون قبلة العابدين والمحبين بلجأون إليها ، ويستمدون منها الحكمة - وهو في الوقت نفسه - صاحب الحكمة . ثم ماذا كانت علاقته برابعة - هل كانت تلميذته أم زميلته في العبادة . وقد كانت من رواد حلقات مالك بن دينار - وعبد الواحد بن زيد ، أم كانت زوجته . ستعود إلى فحص هذا كله حين نبحث في حياة رابعة وحبها الإلهي .

هذا كل ما عرف عن رياح بن عمرو القيسي في كتب التصوف . ولكن الملطي ، ويكاد يكون أقدم مؤرخ للعقائد الإسلامية يذكر رياحاً وكلياً في صنف من الروحانية أو الفكرية المتتمين إلى الزندقة ، يؤمنون « بالخلعة » وهي نوع من المحبة مستمدة من قصة إبراهيم « خليل الله » ويرى الملطي أن هذه الخلعة انتهت بهم إلى نوع من الإباحية . يشرح الملطي أولاً فكرة الروحانية فيقول « وإنما سماها الروحانية ، لأنهم زعموا أن أرواحهم تنظر إلى ملكوت السماء ، وبها يعاينون الجنان أو يجامعون الحور العين ، وتسرح في الجنة » . ولعل الملطي هنا يشير إلى ما ذكره المؤرخون عن الزهاد من أنهم كانوا يحملون برؤية الحور العين ، ودعوتهم العباد إلى الدار الآخرة . ثم يشرح معنى الفكرية - ويقول : إنهم أيضاً سماها « لأنهم يتفكرون - زعموا في هذا حتى يصيرون إليه ، فجعلوا الفكر بهذا غاية عبادتهم ، ومنتهى إرادتهم ، ينظرون بأرواحهم في تلك الفكرة » في هذه الغاية ، فيتلذذون بمخاطبة الله لهم ، ومصافحته إياهم ، ونظرهم إليه ، زعموا أنهم يتمتعون بمجامعة الحور، ومفاكهة الأبقار على الأرائك متكئين ، ويسعى عليهم الولدان المخلدون بأصناف الطعام وألوان الشراب ، وطرائف الثمار . ولو كانت الفكرة في ذنوبهم الندم عليها . والتوبة منها والاستغفار ، لكان مستقيماً . وأما الفكرة فبونها لهم

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٩٥ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ١٩٣ .

الشیطان ، لأنه لا يتلذذ بلذات الجنة ، إلا من سار إليها يوم القيامة ، وهكذا وعد الله عباده للمؤمنين والمؤمنات « وفي الحقيقة إن الملطى هنا ، كما هو عادته يخلط خلطاً كاملاً ، وإن كان يمدنا بمعلومات طريفة عن طائفة الروحانية والفكرية ، إن هؤلاء الروحانية - إن كانوا هم عباد البصرة أو الكوفة ، كانت أرواحهم تنظر إلى ملكوت الله ، وتشوف إلى الجنة ، بما فيها من منافع حسي وروحي ، إن هؤلاء الفكرية - إن كانوا هم عباد البصرة أو الكوفة - جعلوا التفكير في الله غاية عبادتهم ، وناجوا الله في خلال تفكيرهم ، وتشوفوا للجنة ، وما فيها من حور عين . . . إلخ . وكان من المحتم أن تترأى عليهم رؤى الآخرة ومشاهدها فيذكرونها ، عوضاً عن حياة الحرمان التي فرضوها على أنفسهم ، والجوع الذي مارسوه والصوم الذي تابعوه (١) وكان العابد منهم يصيح « العرس يوم القيامة ، العرس الحقيقي الدائم ، لا الحياة القصيرة الزائلة المتهمة التي يحياها البشر في الدنيا الزائفة . وكان منتهى تفكيرهم هو التندم على الذنوب والاستغفار لها .

وأين هو موضع رباح وكليب في هذه الفرقة ، في نظر الملطى ، إنه يعتبرها رأس طائفة من الروحانية ناديت بفكرة الحب الإلهي : إن حب الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم وإرادتهم . إلى أن يسيطر عليهم هذا الحب تماماً « فإذا كان كذلك ، كانوا عنده بهذه المترلة » أي إذا سيطر عليهم الحب . وغلب عليهم . فإن الله يبادهم حباً يحب (يحبهم ويحبونه) فتكون العلاقة بينهم وبين الله - علاقة الخلة . فإذا اتخذهم الله أخلاء ، والخلة متبادلة . أباح لهم السرقة والزنا وشرب الخمر والفواحش كلها « على وجه الخلة التي بينهم وبين الله . لا على وجه الحلال . كما يحل للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه » ثم يقرر الملطى أن « رباحاً وكليباً كانا يقولان بهذه المقالة ويدعوان الناس إليها . ثم يكرر الملطى هذا المعنى أيضاً في موضع آخر - فيقول « ومنهم صنف يقولون إن ترك الدنيا إشغال بالقلوب وتعظيم للدنيا ومحبة لها ولما عظمت الدنيا عندهم تركوا طيب طعامها ولذيذ شرابها ، ولين لباسها ، وطيب رائحتها ، فأشغلوا قلوبهم بالتعلق بتركها وكان من إهانتها موأاة الشهوات عند اعتراضها . حتى لا يشتغل القلب بذكرها . ويعظم عنده ما ترك منها . ورباح وكليب كانا يقولان هذه المقالة (٢) » .

يرى الملطى إذن أن رباحاً وكليباً نادا بالخلة ، وإذا تمت الخلة ، ارتفعت التكاليف ، وأحل للخليل ما في ملك خليله . ولم يكن الملطى - كما قلت - مؤرخاً دقيقاً للحياة الفكرية ، والروحية الإسلامية ، وكتابه خليط مشوه من الحقائق والأكاذيب والتخريجات الصحيحة والفاصلة . إن من المرجح أن رباحاً وكليباً نادا بالخلة وأبرزوا فيها فكرة المحبة أو ضمناها فيها . ولكن لم يكن رباح أو كليب

(١) انظر رؤية مطهر العدي مع الجوار الزينات - وابن الجوزي صفة ج ٣ ص ٢٨٩ .

(٢) الملطى : التنبيه . . . ص ٩١ - ٩٣ .

من يدعون إلى نيل التكليف ، كان في البصرة كل شيء فعلاً ، وكان هناك من يدعو إلى أن إهانة الدنيا إنما يتم بموتاة الشهوات ، ولكن هذا مذهب إباحتى لم يعرف عن رباح ولا عن كليب ، وإنما انتشر في مجامع الزنادقة في البصرة ، وانتقل منها إلى الكوفة . وكان من السهولة بمكان أن يعتنقه رباح وأن يترك حزنه وآلامه ودموعه ، ولكنه لم يفعل هذا . ولم نر مصدراً واحداً يؤيد دعوى الملطى ، ويتفق معه ، اللهم إلا أبو داود السجستاني . ولكن الذهبي ، وكان مؤرخ الإسلام العظيم يقول عنه في سيرة أعلام النبلاء « رباح بن عمرو القيسي ، العابد أبو المهاصر . بصرى زاهد ، متأله ، كبير القدره ويذكر الذهبي أن رباحاً سمع مالك بن دينار وحسان بن أبي حسان وطائفة « وهو قليل الحديث ، وكثير الخشية والمراقبة » ثم يذكر بعضاً من أخباره ^(١) ثم يعود إليه في تاريخ الإسلام ويصفه بأنه « كان خاشعاً خائفاً بكاء » ^(٢) .

وبعد : فما هي مصادر فكرة الخلة التي نادى بها . إن إشارة أبي داود السجستاني والملطى إلى اعتباره من الزنادقة يوميء بأخذه عن المانوية أو المندائية . يقول المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفي « ولا شك أن ظهور الكلام في الحب الإلهي في بيئة البصرة في صورة قوية ناضجة له مغزاه . وإن كنا لا نعرف الكثير عن الظروف التي أحاطت برجال مدرستها . ولكننا نعرف على الأقل أن منهم من كان متأثراً بالفلسفة المانوية التي عرفت بنظرية خاصة في الحب الإلهي خلاصتها أن أرواح الأبرار ذرات نورانية انبثقت من ينبوع النور الأعظم ، فهي دائماً تنجذب إليه ، وتمن إلى العودة إليه ، وتحاول جاهدة الفرار من هياكلها المظلمة ، فغايبتها التحرر من ربة عبوديتها ، والانطلاق من سجنها الأرضي ^(٣) » .

ولكن هل هذا هو الوضع الحقيقي للمسألة . إن فكرة الخلة وفكرة الحب نشأت لدى هؤلاء العباد الأول نشأة إسلامية . استلأ القرآن - كما نعلم - بأسماء الجبال التي تنسب إلى الله ، بجانب أسماء الجلال ، بأسماء المحبة التي تنسب إلى الله بجانب أسماء الجيروت ، وكان من أهم هذه الأسماء (الودود والغفور والرحيم والرؤوف) فالمصدر قرآني أولاً . وحين اتخذ رباح بن قيس فكرة أو نظرية عن المحبة ، وضع لها اسم الخلة ، قياساً على خلة إبراهيم الخليل ، فاتخذ قصة إبراهيم ، نبراهم في وضع أسس نظريته ولا إبراهيم في حياة العباد المسلمين والصوفية من بعدهم مكان لا يداني . هو صاحب قصة

(١) نصوص منشورة من مخطوط الذهبي سير الأعلام النبلاء في كتاب شهيدة العشق الإلهي - رابعة العدوية للدكتور عبد الرحمن بدوي ص ١٨٥ .

(٢) نصوص منشورة من كتاب تاريخ الإسلام للذهبي في نفس الكتاب السابق ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٣) المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفي ص ٢٠٩ .

الذبيح ، وعنها نشأت فكرة سابئة أوضان الله . وكانوا جميعاً عباد البصرة يعتبرون أنفسهم سابئات الله ، ويضعون القيد في أعناقهم ، في انتظار للذبيح ، للموت الحقيقي . وكان إبراهيم الخليل أول من ألقى في نار الدنيا ، وأنقذه الله منها ، حين دعاه هو وحده . وكان إبراهيم الخليل أول من تفكر في خلق الله ، بل أول من أراد اطمئنان القلب - ورد على الله حين سأله (أولم تؤمن) فقال (بلى ولكن ليطمئن قلبي) فالخلقة إذن على مثال إسلامي قرآني ، أما أن يكون خالط هذا الحب عقيدة مانوية فلا نجد أثراً لهذا . حقاً . كانت العقيدة المندائية ، لا المانوية ، منتشرة بمحار - البصرة والكوفة . وكانت المندائية تقول : إن في أعلى عليين - تستقر روح الحياة - الإله الأعظم ، ملك النور محاطاً بالكائنات القدسية . الملائكة ، وإن روح الإنسان روح آدم والمندائيين من أولاده قد استمدت من ملك مملكة السماء هذه . وفي أسفل سافلين ، كانت مملكة الظلام ، بمياهها السوداء ، وأرضها الصلبة . وجاء المندائيون إلى هذا العالم ، وهم غرباء فيه . تحاول الأرواح الشريرة أن تجتذبهم . ولكن المندائي الصالح يقاوم ويقاوم ، مغتسلاً في النهر ، مطهراً آثامه ، محباً لمبدأه الأولى . فينتظر المخلص . ساعة الخلاص . ليعود إلى مملكة السماء . إلى روح الحياة (١) .

ولا شك أن نظرية المندائية متأثرة بأديان قبلها . ثم وضعت في هذه الأسطورة . ولكن هل أخذ منها عباد الإسلام الأوائل . إن القول بأن البعض من هؤلاء كان فارسياً - وقد عرف تراث قومه الأوائل أو أثر فيه - بعيد تماماً عن المنهج العلمي - نقد النص داخلياً وخارجياً . عاش الأعاجم المسلمة من رواد الحياة الروحية الأولى الذين دخلوا الإسلام عن يقين ، حياة إسلامية خالصة . إن كان ثمت مشابهة بين حب الإله . كما صورته الإسلام . وحب المبدأ الأول ملك النور . مبدأ الحياة - في المندائية . فهي مشابهة في عنوان الموضوع ، هذا حب وذاك حب . وليس في الأمر أكثر من ذلك .

ثم نأق إلى المسيحية . هل هي أثرت أيضاً في نظرية الخلقة ، كما أثرت في نظرية المحبة عامة كما تقول مارجريت سميث في كل فقرة من فقرات كتابها ، إن كان قد حدث تأثير أو اتصال ، فإن تفسير الأمر - كما قلت - أن الدينين ينبعان هنا من نبع واحد ويصدران هنا عن فكر واحد . وسأعود إلى فحص نظرية الخلقة - على صورة أوسع - حين أتكلم عن رابعة العدوية :

* * *

٢ - أصحاب رباح بن عمرو القيسي ، زنادقة الصوفية :

ونعود إلى تلك الأسماء التي ذكرها المؤرخون عن مدرسة الخلة . فنجد اسم كليب - وهو كلاب بن جرى - اختلط أيضاً عنده « شدة الخوف وطرب الشوق »^(١) . ويظهر كلاب في مواقف كثيرة ، مع أصحابه من الخائفين بيبكون خوفاً من النيران^(٢) فهو أيضاً خائف بكاء ، يطرب شوقاً لمحبة الله ولقائه . ثم نجد اسم ابن حيان : وقد ذكره داود السجستاني - كما رأينا - على أنه واحد من الزنادقة وأسماء بن حيان الحريري . أما الملطي فيعتبره رأساً لفرقة من الروحانية ، تقرر أنه ينبغي على العباد أن يدخلوا في مضمار الميدان أي ميدان التنسك والتزهد . حتى يبلغوا إلى غاية السبقة أي إلى غاية العبادة . وذلك من تصغير أنفسهم ، وحملها على المكروه . فإذا ما بلغ الإنسان نهاية الطريق تحلل من الواجبات وأعطى نفسه كل ما تشهى وتمنى « سقط عنه تضمير الميدان . واتبع نفسه ما اشتهت »^(٣) . وكل ما بين أقوال ابن حيان من ناحية ورياح وكراب من ناحية أخرى من خلاف وأنه لم يرد في أقوال ابن حيان ذكر الخلة . وقد تبعت اسم ابن حيان هذا ، فلم أجده ذكرًا في كتب التصوف اللهم إلا إشارات عن « حيان الأسود »^(٤) . وهو يروي عن عبد الواحد بن زيد قصة عن الحور العين - ولعل هذه القصص وأمثالها مما دعا الملطي إلى القول بأن هؤلاء العباد « من الروحانية » كانوا يدعون معاينة الحور العين وبجامعتن في هذه الحياة الدنيا « ثم يذكره الجاحظ في الزهاد والنسك باسم حيان أبي الأسود (البيان ج ١ ص ٢٣٢) ويورده صاحب الحلية باسم حيان الأسود ويذكر قولاً له عن أحد العباد « عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلاً . بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلبها بذكر سواك بل عجبت للخليقة كيف أنست بسواك »^(٥) . غير أن صاحب كتاب مصارع العشاق يمدنا بنص هام عن حيان القيسي ، يقول حيان فيه « العباد مع الله تعالى على ثلاث منازل : منازل قوم ، يضمن بهم عن البلاد (ولعلها البلاء) لئلا يسترق الجزع سرهم ، فتكون هذه حكمة ، أو يكون في صدورهم حرج من قضائه ، وقوم يضمن بهم عن مساكنة أهل المعاصي ، لئلا تغتم قلوبهم فن أجل ذلك سلمت صدورهم للعالم ، وقوم صب عليهم البلاء صباً ، فما ازدادوا له إلا حباً »^(٦) ، وليس في

(١) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢٨٩ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ٢٤٤ .

(٣) الملطي : التبيح ص ٩٣ .

(٤) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢٤٢ .

(٥) أبو نعيم : الحلية ج ١٠ ص ١٦٤ .

(٦) أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسن السراج : مصارع العشاق ص ١٤٤ .

هذا النص ما يدل على زندقة ، إنما هو تقسيم لمنازل العابدين إلى ثلاث : منزل هؤلاء الذين ضمن الله لهم عن البلاء ، فلا ينزل بهم ، حتى لا ينزل بهم الحرج من بلائهم ، هؤلاء خلاصهم دون الابتلاء - يعون منه . ومنزل ثان - هو منزل هؤلاء الذين عصمهم عن مخالطة الخاطئين حتى لا تحزن قلوبهم . هؤلاء « سلمت صدورهم للعالم » وانبسوا له . وأصحاب المترلين من العابدين بلائهم ، ثم منزل هؤلاء المتبتلين بكل أنواع البلايا ، ينزلها بهم من كل جانب ، ويتناولهم بكل المحن ، فاقدمت فيهم إلا عجة له ، هؤلاء استهلكوا فيه ، واستعدبوا حبه . وهؤلاء في أعلى المنازل . وهذه صورة من صور الحب البحت .

٣- رابعة العدوية :

وإن الحديث عن صورة الحب البحت الذي انبثق في البصرة لينقلنا إلى التكلم عن مملته الأولى في صورته العارية ، أوفى صورته الأسطورية ، عن رابعة القيسية المشهورة برابعة العدوية (المتوفاة عام ١٨٥ هـ) . وقد قام بعض الباحثين والباحثات بعرض لحياة رابعة وآرائها ، غير أن كل هذه الأبحاث لم تصل إلى توضيح حياة وآراء رابعة في إطارها الحقيقي ، وتقويم هذه الحياة وهذه الآراء تقويماً صحيحاً . قد يمزج بعض الباحثين بينها وبين رابعة بنت إسماعيل (١) ، وهي صوفية شامية متأخرة زماناً عن رابعة المشهورة . والبعض الآخر يبحث حياة رابعة العدوية الأسطورية . فيقوم بتحليل روحى لها ، فيزيد الأسطورة أسطورية ، ويخفي حقيقتها وراء العبارات المضخمة ، والتحليلات الروحية الحديثة ، والمواقف الوجودية بما فيها من استاتيكية وديناميكية والتي لم يعرفها هذا العصر المبكر . لقد أغنت هذه الأبحاث حياة رابعة وأثرت لنا جوانب كثيرة من آرائها ، ولكنها تنكبت رسم الصورة الصحيحة لها وما ألقت به في تاريخ الحياة الروحية الإسلامية وتطورها .

إن لرابعة صورة حية في عصرها ، تتضح فيها نزعات هذا العصر كله . وقد أثرت هذه الصورة في رابعات متعدّدات ؛ تعاقبن في أجيال المسلمين ، سرن على درجتها كما سارت ، ووصلن إلى نفس النتائج ، وعبرن عن آمالهن وراء هذا العالم المحسوس في نفس التعبيرات ، إن الحمسات الرقيقة التي انبثقت من رابعة قد صقلت الحياة الروحية الإسلامية في هذا العصر ، وما بعد هذا العصر ، كان العباد الخائفون والبكاؤون يبكون وبصرخون ويقتحمون « حلقة التصوف » في صرخات عنيفة ، وشطحات خوارة ، ومواعظ ضخمة رنانة ، أما هي فقد جعلت التعبد والتزهّد والخوف - عبادة صامته ، ودموعاً تسع على بساط الحضرة الإلهية ، تكون بحيرة ضافية رقراقية . وغسلت الدموع ،

الخطايا ، وكم كانت الخطايا متمكنة مترسخة في أرض البصرة ، أرض رابعة الجميلة ، انبت الحب في رابعة ، في نفسها الرقيقة الشفافة ، فأخذت تعانيه ، فأطلقت نفس التعبيرات ، التي أطلقها الرجال من معاصريها ، وبعض النساء من سابقها ولكن في صمت واطمئنان ، وبدون الدراما العنيفة ، اللهم إلا نادراً ، لا نجد الشطح ولا الصعق ولا خلع العذار ، ولا يتردد في جنبات المنزل الصوت العالى ، ولا تأوهات الشجن ولا صيحات الشيع .

لقد حطمت الناي الخشبي التي حملته من قبل في حياتها الصاخبة الدنيوية ، وكسرت أوتاره . لتعود إلى الناي الرباني في أعماقها إلى قلبها . وأنشدت على أوتاره الطبيعية . . . أنشودة الحب الإلهي وهي تنظر في وله وجر إلى بحيرة الدموع على البورى العتيق في بيتها الحادي :

أحبك حين حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا

وبعد : فإن الغموض حقاً يشوب حياة رابعة الأولى - قبل تعديها وانتمائها للعباد من البصرة . بل إن الغموض أيضاً يتناول اسم أبيها واسم أمرتها واسم الفخذ أو البطن أو القبيلة التي تنتمي إليها بالولاء . وقد ذكرها ابن خلكان فقال : « أم الخير بنت إسماعيل ، العدوية البصرية ، مولاة آل عتيك ، الصالحة المشهورة ، كانت من أعيان عصرها ، وأخبارها في الصلاح والعبادة مشهورة (١) » . ولكن الجاحظ لا يذكر أبداً نسبتها إلى بنى عدى ، وإنما يشير إليها في مواضع خمس بالقيسية : فيقول في الموضع الأول في ذكر النساك والزهاد من أهل البيان « ومن النساء - رابعة القيسية ومعاذة العدوية امرأة صلة بن أشيم وأم الدرداء » ومن العجب أنه يضعها قبل معاذة العدوية بل أم الدرداء (٢) ويقصد الجاحظ بالنساء هنا « نساء أهل السنة لأنه ما يلبث أن يذكر نساء الخوارج من الناسكات والزاهدات » البلحاء وغزاة وقظام وحادة وكحيلة « ثم نساء الغالية أي الشيعة « ليلي الناعطية » والصدوف وهند » ثم يذكرها مرة ثانية فيقول قبل لرابعة القيسية : لو كلمنا رجال عشيرتك ، فاشترؤا لك خادماً ، تكفيك مؤونة بيتك . فقالت والله إنى لأستحي أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا ، فكيف أسألها من لا يملكها (٣) . ويذكرها مرة ثالثة فيقول « وقلت لرابعة القيسية : هل عملت عملاً قط ترين أنه يقبل منك . قالت « إن كان كل شيء ، فخوفى من أن يرد على (٤) » ثم ما يلبث أن يذكرها في موضع رابع في نساك البصرة وزهادها باسم رابعة القيسية (٥) « وفي موضع خامس في كتاب الحيوان « فإن تهباً مع

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨ . (٤) نفس المصدر : ج ٣ ص ١٠١ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين - ج ١ - ص ٢٣٢ . (٥) نفس المصدر ج ٣ ص ١١٦ .

(٣) الجاحظ : البيان . . ج ٣ ص ٧٢ .

ذلك من هذا المتعشق أن تدمع عينه ، احتاجت هذه المرأة أن يكون معها ورع أم الدرداء ومعاذة ورابعة القيسية ، والشجا الخارجية (١) والجلاظ - وكما لاحظ الدكتور بدوي بحق ، هو أقدم المؤرخين لرابعة ، بل أكثرهم أيضاً معرفة بالتراث البصرى . فرابعة إذن قيسية ، ومن المحتمل أن اسم العدوية قد نسب إليها ، من بنى عتيك أنفسهم ، سواء بانتساب بطن من بطون عدى إليهم ، أو أنهم كانوا أنفسهم عدوين . وإن اسمها الصحيح هذا ، رابعة القيسية يقودنا إلى طريق توبتها ، فحين اعتلج صوت العبادة فيها ، وتردد في أعماقها نوازع الخيرة والاضطراب ، لجأت إلى القيسيين من العباد ، رياح القيسى وحيان القيسى لجأت إلى رجال عشيرتها الأقرين من العباد ، سواء أكانوا قيسيين بالدم أم بالولاء . فقادوها إلى طريق العبادة شيئاً فشيئاً ، وبدأت تتردد على كبار تلامذة الحسن الأحياء وبخاصة عبد الواحد بن زيد . ولا تعلم هل حضرت حلقات وعظه ، أم أن رياحاً كان يأخذ الشيخ الكبير إلى بيتها . ومن الثابت قطعاً أنه زارها كثيراً ويلاحظ أن أصدقاء رابعة من العباد أرادوا أن يكلموا - رجال عشيرتها لشراء خدام لها . فهي إذن متصلة بعشيرة هى عشيرة قيس أو العتكين ومن الواضح أنهم كانوا أقرب الناس لها .

لست أود أن أخوض بالتفصيل في حياة رابعة الأولى ، غير أنه يبدو أن رابعة كانت مولاة ، وكانت تعزف على الناي - فيما يقول العطار - ثم كانت مغنية ، وكانت على جانب كبير من الجمال والحسن ، ويدل على هذا نص هام يشرح لنا شرحاً كاملاً حياتها الأولى ، وقد نقل الياقنى لنا هذا النص في روض الرياض عن بعض الصالحين « خطر لى أن أزور رابعة العدوية رضى الله تعالى عنها وأنظر أصادقة هى في دعواها أم كاذبة ، فيبينا أنا كذلك ، وإذا بفقراء قد أقبلوا ووجوههم كالأقمار ورأيتهم كالمسك ، فسلموا على وسلمت عليهم . وقلت : من أين أقبلتم » . فقالوا : ياسيدى حديثنا عجيب . فقلت لهم : وما هو . فقالوا نحن من أبناء التجار الممولين . فكنا عند رابعة العدوية رضى الله تعالى عنها في مصر (ولعلها البصرة) فقلت : وما سبب ذهابكم إليها فقالوا : كنا ملتين بالأكل والشرب في بلدنا . فنقل لنا حسن رابعة العدوية وحسن صوتها . وقلنا لا بد أن نذهب إليها ونسمع غناها وننظر إلى حسنها ، فخرجنا من بلدنا إلى أن وصلنا إلى بلدها ، فوقفوا لنا بيتها ، وذكروا لنا أنها قد تابت . فقال أحدها : إن كان قد فاتنا حسن صوتها وغنائها ، فما يفوتنا منظرها وحسنها . فغيرنا حليتنا ، ولبسنا الفقراء ، وأتينا إلى بابها . فطرقنا الباب فلم نشعر إلا وقد خرجت ، وتمرغت بين أقدامنا وقالت : لقد سعدت بزيارتكم لى فقلنا لها : وكيف ذلك . فقالت : عندنا امرأة عمياء منذ أربعين سنة ، فلما طرقتم الباب قالت : إلهى وسيدى بحرمة هؤلاء الأقبام الذين طرقوا الباب إلا ما رددت على

(١) الجلاظ : الحيوان ج ١ ص ٧٨ - وانظر الدكتور بدوي شهيدة العشق الإلهى ص ١٠٨ .

بصرى . فرد الله عليها بصرها فى الوقت . قال : فعند ذلك نظر بعضنا إلى بعض وقلنا ترون إلى لطف الله بنا ، لم يفضح سريرتنا فقال الذى أشار علينا بلبس الفقراء والله لاعدت ألقع هذا اللباس من على . وأنا نائب إلى الله عز وجل على يدى رابعة فقلنا له . ونحن وافقناك على المعصية . ونحن نوافقك على الطاعة والتوبة فتينا كلنا على يديها . وخرجنا عن أموالنا جميعها ، وصرنا فقراء - كما ترى^(١) وقد أوردت النص بأكمله ليتبين لنا - أن الرواية وإن كانت تضع رابعة فى أسنى درجات المشيخة الصوفية فى وقت تعبدها المبكر متمرغة أمامهم وتحت أقدامهم الدنسة فى خضوع مطلق للإرادة الإلهية . مستلقية على حضرة الله ، ملقبة إليهم بسر الطريق ، التصفية ، إلا أن الرواية تكشف لنا عن حياتها الدنيوية قبل التوبة . كان أبناء الأغنياء إذن يأتون إليها . ويستمعون إلى صوتها . وكانت تستقبل هؤلاء جميعاً ، وقد اشتهرت فى العالم الإسلامى بجأها وغنائها .

ودخلت طريق العباد والزهاد . . . طريق البكاء والخوف ، وطريق التهجيد فى اللبالي الطوال . وكان لا بد أن تذهب لامرأة مثلها عانت الطريق من قبل . فاتصلت بحيونة ، عابدة من أكبر عابدات البصرة . وقد تساءل : هل عرفت الطريق إليها بنفسها ، أم قادها إليها رياح القيسى . لقد كانت حيونة على صلوات بعبد الواحد بن زيد ، وعبد الواحد بن زيد أستاذ رياح . فهل عرفت رابعة حيونة عن هذا الطريق . سواء هذا أو ذلك . فقد أثرت حيونة فى رابعة أشد التأثير . والأخبار قليلة - ولكنها كافية لكى تبين لنا تأثيرها فى رابعة .

كانت حيونة - خادمة من خادמות الله : وقد أعلنت هى هذا - حين صامت حتى اسودت ، فعويت على ذلك ، فرفعت طرفها إلى السماء وقالت : لقد لأمنى خلقك فى خدمتك ، فوعزتك وجلالك ! لأخدمك حتى لا يبقى لى عصب ولا قصب . ثم أنشأت تقول :

يا ذا الذى وعد الرضا لحبيبه أنت الذى ما إن سواك أريد

وهكذا تغنت بالحب الإلهى ورضا المحبوب . بل إنها تقول « من أحب الله أنس ومن أنس طرب . ومن طرب اشتاق . ومن اشتاق . وله ومن وله خرم . ومن خرم وصل . ومن وصل اتصل . ومن اتصل عرف ومن عرف قرب . ومن قرب لم يرقد . وتسورت عليه بوارق الأحران » وسرى رابعة تسير فى نفس الخطى خدمة الله . وإعلان الرضا . ثم تتغنى بالحبة . وتعلو حيونة على الوعظ ، وتقف منه موقف المعادة ، وترى فيه غشاء خارجياً ، لا يصل إلى القلب . وتقف حيونة يوماً على عبد الواحد بن زيد وهو فى حلقتة - يعظ الناس بأسلوبه النارى ، ولكنها ترى أنه فى الحقيقة ما زال يتكلم عن الدنيا ،

(١) الياضى : روض الراحين ص ٣٦٩ - ٣٦١ .

ويدلها ، وأنه يهاجمها ، لأنه ما زال متعلقاً بها ، ثم هو- فوق هذا وذاك- يتقرب إلى العباد فتصرخ فيه : يا متكلم : تكلم عن نفسك . والله لو مت ما تبعت جنازتك . فاستدار عبد الواحد بن زيد إليها . وسألها- ولم ؟ قالت : تتكلم عن الخليفة وتتقربين لهم . ما شبتك إلا بمعلم صبي علمه أن يحفظه بالقسي . فإذا بكر من بيت أمه نسي فيحتاج المعلم إلى ضربه . اذهب يا عبد الواحد . اضرب نفسك بكرة الأدب . وتزود زاد القناعة : واجعل حظك مما أنت فيه الكلام على نفسك . ثم تكلم على الخليفة ولقد عرق عبد الواحد بن زيد . وامتنع عن الوعظ سنة^(١) .

ونرى نفس هذه الصورة لدى رابعة ، فهي تقف موقف المعلم الروحي الكبير من سفيان الثوري . وكان سفيان يحب دائماً زيارتها ويدعوها بمأدبة الله . ويذكر جعفر بن سليمان العابد أن سفيان الثوري أخذ بيده وقال له : مر إلى المأدبة التي لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها . فلما دخلها عليها . قال سفيان : اللهم إني أسألك السلامة . فبكت رابعة : فقال لها سفيان : ما يبكيك . قالت : أنت عرضتني للبقاء . فقال لها : وكيف ؟ قالت : أما علمت أن السلامة ترك ما فيها . فكيف وأنت متلطخ بها . ومرة ثانية يقول بين يديها « واحزنه » فتقول : لا تكذب . قل . واقلة حزناه . لو كنت محزوناً . ما هناك عيش « وتعظه فتقول : إنما أنت أيام معدودة . فإذا ذهب يوم ، ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض ، أن يذهب الكل وأنت تعلم فاعمل « وكذلك تفعل مع رياح القيسي وصالح بن عبد الجليل^(٢) وكلاب^(٣) إنهم يدخلون بيتها ويجلسون بين يديها ، وتذكروا الدنيا فذموها فقالت رابعة : إني لأرى الدنيا بترابعها في قلوبكم . ومن أين توهمت علينا . قالت : إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء إلى قلوبكم ، فتكلمتم فيه^(٤) وهكذا . . . وعلى مثال حيونة- تقف رابعة من هؤلاء جميعاً- موقف الشيخ يقود المريدين إلى حظيرة القدس . بل إنها تنادى رياح بن عمرو القيسي . . . ونقول : يا غلام- وتأخذ بيده- وتدعو الله^(٥) . . .

ومرة أخرى تبدو حيونة — في مقام أستاذة رابعة . فقد زارت رابعة حيونة وقضت الليل معها . ولكن لم يحتمل جسدها الرقيق السهر . فنامت فأيقظتها حيونة — وهي تقول : قومي . قد جاء عرس المهتدين . يا من زين عرائس الليل بنور التهجد^(٥) « فقامت رابعة للعبادة . وقد تصور الدكتور بدوي

(١) أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري : مصارع العشاق ص ١٢٨ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ١٨ و ١٩ .

(٣) صالح بن عبد الجليل : عابد من كبار العباد ، وقد نقل عنه أبو سليمان الداراني . انظر : الخلية ج ٨ ص ٣١٧ .

(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٦ لوحة ٢٠٨ .

(٥) النيسابوري : عقلاء المجانين ص ١٢٨ .

أن حيونة هنا ترمز إلى الزواج الروحي بالله ، وأن فكرة هذا الزواج اختمرت لدى العابدات المسلمات الأوليات قبل اختباره وظهوره لدى الرهبنة المسيحية بقرون . ويحاول أن يربط بين قول حيونة هذا وبين موقف رابعة من عبد الواحد بن زيد حين خطبها فرفضته ، والقصة كما يوردها الزبيدي « وخطبها عبد الواحد بن زيد ، فحجبتة أياما حتى سئلت أن يدخل عليها . فقالت له : يا شهواني . اطلب شهوانية مثلك . أى شيء رأيت في من آلة الشهوة » . وفي الحقيقة إن قول حيونة لا يوحى أبداً بفكرة الزواج الروحي « من الله ، والزفاف به . إنه فقط إعداد لعروم الليل ، أن تملأ عرسها بالتبتل والتجهد » . وحقا يكون الاستنتاج صحيحاً ، وأنه زفاف بالله ، إذا ما نقل عن هؤلاء العابدات ممن ذكروا هذه العبارات ، كلمات العشق أولاً ، وهذا ما لا نجد أبداً . وثانياً — رؤية الله وإشراقه عليهن وتجسده . وفكرة الزواج الروحي في الرهبانية المسيحية متصلة بفكرة التجسد الإلهي ، ولم يرد شيء من هذا على الإطلاق في كلام العابدات المسلمات الأوليات . ثم ماذا نقول في هؤلاء المحبين من الرجال ، ممن امتنعوا عن الزواج . هل أملوا أيضا — بنور التجسد — الزواج بالله . أو أنهم اتجهوا في هذا الوقت المبكر من تاريخ الحياة الروحية في الإسلام إلى فكرة الحلول والاتحاد . وهو ما لا نجد أيضا في تاريخ هؤلاء الرجال ، وسيرد عن رابعة نفسها أبيات في الحلول يرثها الذهبي منها ، أو يفسرها تفسيرا آخر . ثم نأتى إلى أقوال رابعة في رفضها عبد الواحد بن زيد — كما ذكر عنها رفضها للحسن البصرى — وهو خطأ تاريخي . أقول إن رابعة في رفضها لعبد الواحد بن زيد تطلب من هذا الشهواني أن يبحث عن شهوانية مثله . أما هي — وهي في تعبدها وتهجدها وتزهدا فقدت آلة الشهوة . أى أنها تقرر أن هناك سببا ماديا يحول بينها وبين هذا الزواج .

وقد تزوجت العابدات من قبلها ، وسرى رابعة بنت إسماعيل الشامية تزوج أحمد بن أبي الحواري . ولا يمنعها الزواج من إطلاق أغاني الحب الإلهي . ثم إننا لا نجد فكرة « الزواج الإلهي » بعد ذلك في أوساط صوفية الإسلام . سنجد نظرية الحب تتصل بالحلول ، كما تتصل بالاتحاد — أى وحدة الوجود . وسراها تتصل بوحدة الشهود . كما سراها لدى صوفية أهل السنة والسلف في نظرية جميلة تتصل برؤية الوجه الإلهي ، ولكننا لن نرى فكرة الزواج الإلهي في صورته المسيحية الرهبانية في أوساط صوفيات الإسلام وصوفيته فيما بعد .

وعلى أية حال — فقد كان لحيونة من التأثير في رابعة الشيء الكبير ، وكان لا بد لرابعة أن تلجأ إلى امرأة ، وهي في أول الطريق ، وقد حاكت حياتها واستمعت إليها وهي تقول (١) .

ياذا الذي وعد الرضا لحبيبه أنت الذي ما إن سواك أريد

(١) الزبيدي : انعام السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين ج ٩ ص ٥٧٦ .

واستمعت إليها وهي تدعوه بواحدتها :

يا واحدى : تتمنى بالليل التلاوة ، ثم تقطعنى عنك فى ضياء النهار . يا إلهى . وددت أن النهار ليل حتى أتمتع بقربك^(١) » ...

وهكذا فعلت رابعة من بعدها ، بل إن حيونة هى التى دفعتها إلى قيام الليل ، حتى وصلت إلى القرب الإلهى .

ولم تكن حيونة العابدة الوحيدة فى هذا العصر التى نادى بفكرة الحب الإلهى قبل رابعة . كان غيرها الكثيرات . شعوانة الفارسية ، وقد اعتبرها المؤرخون من «السلف الصالح» أشدت الحب قبل رابعة فى الأبله ، الثغر الفارسى القديم ، وعاصرتها رابعة ، كما كان هناك بردة الصريمية ، وقد أطلقت — قبل رابعة نفس العبارات التى أطلقتها رابعة فى الحب الإلهى^(٢) . وعاصرت رابعة أيضاً عبيدة بنت أبى كلاب^(٣) من كبار العابدات فى البصرة . وكذلك عفيرة العابدة المشهورة^(٤) ، كما قامت على خدمة رابعة — عبيدة بنت أبى شوال ، وكانت من خيار «إماء الله»^(٥) ثم مريم البصرية وكانت أيضاً خادمة لرابعة «وكانت إذا سمعت علوم المحبة طاشت» . بل يذكر ابن الجوزى أنها حضرت بعض المذكرين ، فتكلم فى المحبة ، فانت فى المجلس^(٦) . ونستنتج من هذا أن القوالين والمذكرين كانوا يتناولون علم «المحبة» وينشدون أناشيدها فى عصر رابعة ، وإنما نرى خادمتها تصعق وتموت فى مجلس الذكر ثم نرى صورة أخرى من رابعة وهى حبيبة العدوية تكاد تعيش فى نفس العصر تقوم على سطح منزل وتشد عليها درعها ونخارها فى الليل . وتقول : «إلهى غارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وبابك مفتوح ؛ وخلا كل حبيب بحبيبه . وهذا مقامى بين يديك» فإذا كان السحر ، أخذت تردد «اللهم وهذا الليل قد أدير ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعرى هل قبلت منى ليلتى ، فأهنى ، أم رددتها على فأعزى ، فوعزتك لهذا دأبى ، ودأبك أبداً ، لو انتهرتني ما برحت من بابك ، ولا وقع فى قلبى غير جودك وكرمك^(٧)» .

وذكر ابن الجوزى ابنة أم حسان الأسدية البصرية ية وكان يزورها سفيان الثورى — كما كان يزور

(١) النيسابورى : عقلاء المجازين ص ١٢٨ .

(٢) ابن الجوزى صفة ج ٤ ص ١٦ - ٣٩ .

(٣) نفس المصدر ج ٤ ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ٢١٨ وابن الجوزى صفة ج ٣ ص ٢٢٤ ، ج ٤ ص ٢١ ، ٢٢ .

(٥) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٩ .

(٦) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢١ .

(٧) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٠ .

رابعة ، وقد اتهمته أيضاً ، كما اتهمته رابعة بحب الدنيا . وذكر سفيان عنها أيضاً أنه كان إذا جن عليها الليل ، دخلت محراباً لها وأغلقت عليها ونادت «إلهي خلا كل حبيب بمحبوبه ، وأنا خالية بك يا محبوب (١)» .

وكان هناك في الكوفة ميمونة السوداء وقد ذكرنا قصتها مع عبد الواحد بن زيد . وفي الأبله أيضاً «ريحانة» وقد ذكر صالح المري أنه رآها فسلم عليها فقالت : يا صالح اسمع :
 بوجهك لا تعذيني فإني أوئل أن أفوز بخير دار
 وأنت مجاور الأبرار فيها ولولا أنت ما طاب المزار
 بل كان يذهب إليها ثابت البناني هو ومجموعة من العباد ، ويقضى الليل في بيتها بالأبله . وكانت تقوم أول الليل وهي تقول :

قام المحب إلى المؤمل قومة كاد الفؤاد من السرور يطير
 فلما كان جوف الليل ، سمعها ثابت البناني وأصداقاه تقول :

لا تأنس بمن توحشك نظرته فتمنن من التذكار في الظلم
 واجهد وكذ وكن في الليل ذا شجن يسقيك كأس وداد العز والكرم
 ثم تنادى - حين يطل عليها الصباح : واحرباه واسلباه :

ذهب الظلام بأنسه وبألفه ليت الظلام بأنسه يتجدد
 ونرى نفس الأمر يتكرر عند رابعة . يأتي إليها العباد ويقضون الليل في بيتها ، ثم تردد هي أغاني الحب . . .

أما عن صلوات حياة رابعة بالرجال من الزهاد ، فإنه لم يبحث بعد أيضاً . غير أنني أود أن أضع هنا بعض الملاحظات العامة : هل تعبدت رابعة - والعبادة هنا بمعناها الفني هو هجر الدنيا والانقطاع لله - وهي في أوج جلالها وحسنها . كما تصورنا الأسطورة ، أما أنها قد فعلت هذا وقد تقدم بها السن . إننا نراها تصرخ في عبد الواحد بن زيد حين تقدم لخطبتها «يا شهواني - اطلب شهوانية مثلك ، ماذا تجد في من آله الشهوة» - وهذه صرخة من امرأة في خريف الحياة . ثم ما هي صلواتها بالقيسين وبخاصة رباح بن عمرو القيسي . إنه يأتي بصديقه الأبرد ويقول لها «استري بثوبك» وهذا نداء من زوج ، فهل هي امرأته . هل هي «امرأة رباح القيسي» التي ذكرها ابن الجوزي ، والتي ذكر أنها كانت أكثر منه عبادة وقياماً بالليل ثم إن شميظ بن عجلان - وهو الذي زوج رباحاً هذه المرأة

(١) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٣٠ .

العابدة ، كان من مشايخها^(١) . ثم هناك مجموعة من الرجال قدسهم رابعة أشد التقديس ، منهم عبد العزيز بن سلمان الراسبي ، وكانت رابعة تسميه «سيد العابدين» وكان لعبد العزيز الراسبي سرداب يحلوه به^(٢) .

ونحن نتساءل أيضاً ما هي صلاتها بالعتكيين . . . وهي في زمن عبادتها وقد عرفت بأنها مولاة آل عتيك . كان ضيفم بن مالك من العتكيين . وقد عرفته رابعة معرفة تامة^(٣) . وقد عرف عنه أيضاً أقوال في الرضا «لو أعلم أن رضاه أن أقرض لحمي لدعوت بالمقراض فقرضته» ، ويخاطب الله : «قرة عيني» وإذا أصابته الفترة ، اغتسل وقال «كيف عزفت قلوب الخليقة عنك ، ثم يدخل بيته ، ويغلق بابه ويقول «إلهي - إليك جئت^(٤)» . هل كانت هذه كل الصلة ، صلة الإعجاب بعباد ، أم أن رابعة - وهي في أوج تعبدها - كانت تتصل بأوليائها القدامى ، وكان من الرواة عنها أيضاً بشر ابن صالح العتكي^(٥) . ثم إنها أيضاً كانت على صلوات ببشر بن منصور السلمي ، وتحمل له في نفسها أعظم التقدير^(٦) .

وإذا انتقلنا إلى عرض آرائها كواحدة من عابدات المسلمين ، ونموذجاً صوفياً فلسفياً ، يضعها في نسق صوفية الحلول ، ويصدر عنها الشطح ، وخلع العذار ، ويمثل أصحاب النموذج الأول : ابن الجوزي وابن تيمية والذهبي ، ومؤرخو التصوف السني - من أمثال الكلاباذي والقشيري وأبو طالب المكي والغزالي والزبيدي وغيرهم ، أما أصحاب النموذج الثاني - فهم مؤرخو التصوف المتأخرون من الفرس ، والشعراء المتأخرون الصوفية منهم . ثم جماعة من الحلولية ، اتهموا بأنهم قد وضعوا على لسانهم نظرية الحلول ، أو أنهم فسروا كلامها تفسيراً حلولياً ، وجعلوها الصوفية الأولى التي شطحت في البصرة ؛ بل بلغت في شطحها الأوج . ثم جعلوها المبشرة الأولى بفكرة الحج بالهمة . وأتينا نلاحظ أن أصحاب النموذج الأول هم المؤرخون الحقيقيون ، الذين كتبوا التاريخ بتزاهة وأمانة ، وأما المتأخرون من الفرس - مؤرخين كانوا أو شعراء ، فكانوا يجمعون المتقدمين من الصوفية والعباد آراءهم هم ، ويجعلونهم أسطورة من أساطير التصوف .

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٦ لوحة ٢١٨ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢٨٨ .

(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٧٠ .

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٨٦ ، ج ٤ ص ١٩ .

(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٦ لوحة ٢٠٨ .

(٦) ابن الجوزي : صفة ج ٣ ص ٢٨٦ .

وسنعرض في إيجاز لآراء رابعة طبقاً للنموذجين .

أما النموذج الأول : فتظهر فيه رابعة في صورة المرأة الزاهدة العابدة الخاشعة ^(١) . تسمع الآية القرآنية فتخشع وتسقط باكياً . وتقضى الليل كله في صلاة ، وكانت تعلن أنها تطلب رضاء الرسول يوم القيامة وأن يباهى الأنبياء بعملها ، فإذا طلع الفجر ، هجعت هجمة . ثم تستيقظ — وهي تقول : « يا نفس كم تنامين . وإلى كم تقومين . يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا ليوم النشور » . ثم أخذت تطلق في الاستغفار كلمات ربانية ، استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق . وبدأت تخرج عن الدنيا كلية ، ففكره ذكرها حتى في مقام الذم ، وتشهد بقول الرسول « من أحب شيئاً أكثر من ذكره » وتصرخ لصالح المري وهو يعظ بنفس الحديث وتقول للعباد : ذكركم لها دليل على بطلان قلوبكم « إنها تراهم غرقى فيها ... فتقول « إذ لو كنتم غرقى في غيرها ما ذكرتموها » وكثيراً ما قالت لسفيان الثوري إنه ملطخ بهذه الدنيا ، شارب كأسها حتى التالة « أما علمت أن السلامة من الدنيا ترك ما فيها ، فكيف وأنت ملطخ بهذه الدنيا ، شارب كأسها حتى التالة « أما علمت أن السلامة من الدنيا ترك ما فيها ، فكيف وأنت ملطخ بها ^(٢) » ويقول بين يديها « واحزنانه » — فرد عليه « لا تكذب : قل واقلة حزناه . لو كنت محزناً ما هناك عيش ^(٣) » وكانت تيب عليه اشتغاله بالحديث وتنظر إليه وتقول « نعم الرجل أنت لولا رغبتك في الدنيا . فقال : ماذا رغبت قالت : في الحديث « ولا تبقى للدنيا ذرة من مدخل فيها . ترفض أموال الناس وصلاتهم وهداياهم . فأناها رجل بأربعين ديناراً لتستعين بها على الحياة — ترفض باكياً ، وترفع رأسها إلى السماء — قائلة « هو يعلم أنى أستحى منه أن أسأله الدنيا ، وهو يملكها ، فكيف أنا أريد أن آخذها ممن لا يملكها ^(٤) » .

وعاشت مدة طويلة في مقام الخوف « فإذا سمعت ذكر النار أغمى عليها » بل إن مالك بن دينار يسمعاها تقول « كم من شهوة ذهبت لذتها ، وبقيت تبعثها . يا رب أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار » . ثم ما تلبث أن تنتهى إلى الرضا وتعبر عن هذا الرضا حين سئلت « متى يكون العبد راضياً » فرد : « إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة » . ولم تعد تسعى لرزق ، وتساوى عندها اللذة الألم ، وقد حدث أن اصطدمت رأسها بجدار ، فأدماه ، فلم تلتفت لذلك . فقيل لها : ما تحسبن بالألم . فأجابت : شغلى بموافقة مراده — فيما جرى شغلى عن الإحساس بما ترون ^(٥) .

وتعيش في منزلة « الحيرة » فتساءل يوماً « من يدلنا على حبيتنا » ، فتقول لها خادمتها « حبيتنا

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٦ / ٢ . لوحة ٢٠٨ وانظر الذكور بدوى ص ١٨٣ .

(٢) المناوى : طبقات الأولياء . . ١٠٤ / ب والذكور بدوى . رابعة ص ١٣٥ .

(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٤ .

(٤) نفس المصدر : ج ٤ .

(٥) المناوى : طبقات الأولياء . ١٠٤ ب ، ١٠٥ .

معنا ، ولكن الدنيا قطعنا عنه (١) « ... فلا بد إذن من قطع الدنيا ... حتى يكون الحبيب معها .
وتسير في طريق حيونة . الرضا يدفعها إلى الاستهلاك في حب الله ، ولكنها ما زالت خائفة ، فتناجيه :
إلهي : أتحرق بالنار قلبا يجبك . فهتفت هاتف : ما كنا نفعل هكذا . فلا نظني ظن السوء (٢) » فينتهي
الخوف ، وقد اطمأنت في مناجاتها ، واختفت آلام الدنيا ، ثم تجاوزت نظرتها النعيم الأخرى المادي ،
فيسألها سفيان الثوري : ما حقيقة إيمانك : فتقول : ما عبدهت — خوقاً من ناره — ولا حبا لجنته
فأكون كالأجير السوء ، إن خاف عمل ، بل عبدهت حبا له وشوقاً إليه (٣) « وفي نفس عبارات حبيبة
العدوية وبردة الصريمية ، بل بنفس الحركات تقوم على السطح وتشد عليها درعها وتضع خاها
تقول : « إلهي — أنارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها . وخلا كل حبيب بحبيبه ،
وهذا مقامى بين يديك ... » ثم تقبل على الصلاة والتهدد والعبادة حتى الصباح ، فإذا كان وقت
السحر ، وطلع الفجر قالت : إلهي — هذا الليل قد أدير ، وهذا النهار قد أسفر . فليت شعري :
أقبلت مني ليلتي فأهنا ، أم رددتها على فأعزى . فوعزتلك . هذا دأبى ما أحييتنى وأعتنتى . وعزتلك . لو
طردتني عن بابك ما برحت عنه ، لما وقع في قلبي من محبتك (٤) « ... ثم يورد صاحب الروض الفائق
آياتاً لها كانت تنشدها :

يا سرورى وميتى وعمادى وأنىسى وعدنى ومرادى
أنت روح الفؤاد أنت رجائى أنت لى مؤنس وشوقك زادى
أنت لولالك يا حياتى وأنىسى ما تشنت فى فسيح البلاد

وإني لأشك بعض الشك في نسبة هذه الآيات إليها . فهي تذكر التشتت في البلاد . ونحن نعلم
أنها لم تكن من السأمحات ، فقد استقرت في البصرة ، اللهم إلا خلال حجها . فهل اعتبرت الحج هو
التشتت في البلاد . هذا بعيد ثم ينسب إليها رباعيتها المشهورة والتي ترجع نسبتها لذي النون :

أحبك حين حب الهوى وحياً لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فذكر شغلت به عن سواكا
وأما الذى أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا
فأ الحمد فى ذا وفى ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وقد شك الأقدمون أيضاً من الباحثين في نسبة هذه الرباعية لها ، فنسبها إلى سفيان الثوري

(١) القشيري : الرسالة ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) الزبيدي : أتحاف السادة المتقين ج ٩ ص ١٨٨ .

(٣) الحريفيش : الروض الفائق ص ١١٧ .

وجعفر بن سليمان الضبعي ، وعبد الواحد بن زيد وحامد بن زيد (١) . ولكن الدكتور كامل الشبيبي يشك في صدور هذه الأبيات عن العصر كله . يقول « ويبدو من هذه الأبيات التأخر أولاً ، وضعفها باد في التعبير وفي السبك ، وعليها مسحة الشعر التعليمي الذي يقصد به ، ضبط تفاصيل العلوم في أبيات تحفظ عن ظهر قلب » (٢) وهذا واضح تماماً من تأمل الشعر ، ثم هناك شواهد - تمت إلى النص الخارجي للنصوص يؤيد هذا . إن معظم من أرخوا لرابعة لم يذكروا هذه الأبيات لها وبخاصة ابن الجوزي وأبو نعيم . ثم لم يوردها الذهبي - فيما بعد - مع أنه أورد بيتين لها يوهمان الحلول . ثم يورد أبو نعيم وغيره هذه الرابعة منسوبة إلى ذى النون المصري أو على الأقل يوردها هو وغيره - في حديث له مع جارية قابلها على ساحل البحر ، عليها أطيار شعر ، وهي ناحلة ذابلة ، فدنا منها لسمع ما تقول ، فقرأها متصلة الأحزان بالأشجان ، وعصفت الرياح ، واضطربت الأمواج ، وظهرت الحيتان . . . فصرخت ثم سقطت على الأرض . فلما أفاقت . . . قالت : سيدى بك تقرب المتقربون في الخلوات ، ولعظمتك سبحت الحيتان في البحار الزاخرات ، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطحات . أنت الذى سجد لك سواد الليل وضوء النهار ، والفلك الدوار والبحر الزخار ، والقمر النوار والنجم الزهار ، وكل شيء عندك بمقدار ، لأنك العلى القهار .

يا مؤنس الأبرار في خلواتهم يا خير من حلت به التزال
من ذاق حبك لا يزال متباً فرح الفؤاد - متيماً بلبال
من ذاق حبك لا يرى متبسماً من طول حزن في الحشا إشال

فقال لها : زبدتنا من هذا . فقالت : إليك عنى . ثم رفعت طرفها إلى السماء - وقالت :

أحبك حين : حب الوداد وحباً لأنك أهل لذلك
فأما الذى هو حب الوداد فحب شغلت به عن سواك
وأما الذى أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراك
فما الحمد في ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد في إذ وذاك

إن هذه الرابعة من روح ذى النون المصري ، وقد كان ذو النون معلماً كبيراً ، وشيخاً لمريدين ، كما كان إسماعيلياً تعليمياً ، اتصل بالفلسفة الأفلاطونية المحدثة ، وعرف الفلسفة عامة وهناك إشارة لامعة للعالم الممتاز الدكتور كامل الشبيبي يذكر فيها أن « شعراً شبيهاً بهذا الذى نسب إلى رابعة عرض على الكندي الفيلسوف ، فقد سمع إنساناً ينشد :

(١) الزبيدي : أتحاف السادة المتقين ج ٦ ص ٥٧٧ .

(٢) الدكتور كامل الشبيبي : الصلة ج ١ ص ٣٢٥ .

وفي أربع منى حلت منك أربع فما أنا أدري أيها هاج لي كربى
خيالك في عيني أم الذكر في في أم النطق في سمعي ، أم الحب في قلبي
فقال الكندي - والله لقد قسمتها تقسيماً فلسفياً . يقول الشيبى « وإذا كان هذا التعداد الجميل
يدخل في باب التقسيم الفلسفى ، فما أخلق أبيات رابعة - والمفروض أنها سابقة عليه - أن تدخل
المدخل نفسه ، فتقطع الصلة بين الأبيات وبين زاهدتنا العاشقة التى لم تحظر المنطقة والترتيب على
بالها » (١) ويلاحظ أن الكندي (١٨٥-٢٥٢) قد عاصر ذا النون المصرى (١٨٠ هـ - ٢٤٥ هـ) وقد
زار بغداد . فلا شك أن هذا الأخير إذن ، قد عرف ثقافات عصره وبخاصة أنه كان في بيئة
الأفلاطونية المحدثة . في مصر . ثم إذا كانت الأبيات تنسب له في هذا اللقاء الروحى أو هذه المناجاة
الروحية مع امرأة على الساحل ، فلا شك أن الأبيات له . اللهم إلا إذا كانت من التقاسيم المدنية التى
كانت تشدها رابعة - وهى تغنى قبل تعبدها - ثم استخدمتها في تعبدها رمزاً على حبها الإلهى .
على أننى أرى أنه سواء كانت هذه الأبيات لذى النون المصرى أو لغيره - ففيها تاريخ حياة
رابعة . فهى فعلاً كانت تتردد بين حين : حب الهوى : وحب لما هو أهل له . وقد أكثر الباحثون من
الصوفية - بعد رابعة في شرح هذين النوعين من الحب . واعتبروا الحب الثانى هو الحب البحث
الأعظم ، بل إن مارجرىت سميث ترى أن الحب الأول هو حب الأثرة ، والحب الثانى هو حب
الإيثار . وإذا رجعنا إلى النص نفسه المنسوب إلى رابعة ، نجد تحديداً لنوعى حبها . فالأول هو الشغل
بذكره عن سواه . والثانى هو حب كشف الله للحجب حتى تراه . والأول : يكسبه الإنسان بذكره ،
والثانى منة منه لها ويبدو الأول - مقاماً ، والثانى حالاً « والمقامات مكاسب والأحوال مواهب » ثم
لماذا لا نفسر هذين الحين في ضوء النصوص السمعية ، إن فعلنا . . . كان الحب الأول أقوى وهو
موجود عند السلف .

أما بعد : فإن الطريق يقود رابعة إلى أوج الحب - إلى الخلة . . . وقد قلنا من قبل إن نظرية الخلة
قد نسبت إلى رباح القيسى وكليب . . . وهما هى رابعة تنادى بها أيضاً . فيذكر الزبيدى « أن من قولها
النادر في مقام الخلة » .

وتخلت مسلك الروح منى وبه سمى الخليل خليلاً
فإذا ما نطقت كنت حديثي وإذا ما سكنت كنت الغليلاً
ثم كانت « كما يقول الزبيدى عنها - تذكر الأنس في وجدها وترتفع إلى وصف معنى الخلة في قولها
السائر .

إني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبجت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجلوس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي^(١)

وقد ذكر الذهبي أن رابعة كانت تتمثل بالبيت الأول - فهل لم يكن من تأليفها - : إني جعلتك . . . إلخ . وعلق عليه « فنسبها بعضهم إلى الحلول بنصف البيت ، وإلى الإباحة بنهاه . قلت فهذا غلو وجهل . ولعل نسبها إلى ذلك مباحي حلولى . ليجتج بها على كفره ، كاحتجاجهم بخبر . . . كنت سمعه الذى يسمع به » . فقام الخلة إذن انتهى في نظر بعض الناس إلى الحلول والإباحة . ولكن الذهبي يرى أن هذا غلو وجهل ويورد عن أبي سعيد بن الأعرابي : أما رابعة فقد حمل الناس عنها حكمة كثيرة^(٢) ثم يقرر أن سفيان وشعبة وغيرهما حكوا عنها ما يدل على بطلان ما قيل عنها^(٣) . ولا شك أن الذهبي - وهو أعظم ناقد للرجال - ما كان يخفى عليه حقيقة رابعة . غير أن مقام الخلة نفسه ، وأبيات رابعة ، تحتاج إلى تمحيص أكثر . إن من المؤكد أن هؤلاء الرواد الأوائل لحياة الروح في الإسلام ، تلقوا من القرآن ما يؤكد ويؤكد مواجدهم ، فحين أحسوا بالعاطفة المتقدمة تتخلل بوطنهم ، نظروا إلى القرآن ، ورأوا منزلة إبراهيم ، فاعتبروا ما يعانونه إنما هي معاناة تشبه معاناته . فسموا هذه المعاناة «الخلة» ثم تطورت المسائل وتشابكت ، وخرجت منزلة الخلة عن معناها ، أو استخدمها حلقات من أصحاب الحلول والزندقة والإباحية ، هل فعلت رابعة ورياح وكليب هذا . إننا لا نجد في حياتهم ظلا من زندقة أو إباحية . ولكن ظهر في البصرة مجامع الزنادقة والإباحية والفساق وكانوا يعطلون كل هذا تعليلاً غنوصياً . وقد وجه الدكتور كامل الشيبى نظري إلى نص هام ذكره سعد ابن عبد الله الأشعري صاحب كتاب المقالات والفرق عن «أصحاب المجاهدة في البصرة همام وحرب النجار وعبد السلام السروطى . بوصفهم» ممن يجعلون للفرض حداً ، والامتحان نهاية ، إذا بلغها العبد ، سقطت عنه المحنة . وذلك أن العبد - إذا صلح وطهر وخلص ، فارق الأدناس ، ولم يأخذ الأمور على الأهواء ، لم يميز امتحانه ، ولم يحسن في الحكمة اختياره ، ولذلك فكل حرام على غيره ، حلال له^(٤) والنص يحتاج إلى تحقيق ، هل يذهب هؤلاء همام وحرب النجار وعبد السلام السروطى إلى هذا النوع من إسقاط التكاليف إذا وصلوا إلى نهاية المجاهدة ، أم أن هذا النص من قبيل نص الملطى عن الروحانية وأصحابها من أمثال رياح وكليب وحيان . ونجد أن هذا المذهب قد بشر به

(١) الزبيدي : تحاف السادة . . ج ٩ ص ٥٧٦ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٦ / ٢ لوحة ٢١٨ .

وانظر الدكتور بدوي : رابعة ص ١٨٤ .

(٣) سعد بن عبد الله الأشعري : المقالات والفرق ص ٤٤ .

مالك بن دينار في قوله «ما من أعمال البر شيء إلا ودونه عقبة ، فإن صبر صاحبها أفضت به إلى روح ، وإن جزع رجع» (١) فالروحانية هنا منسوبة إلى «روح وريحان» القرآنيين... هذا المذهب الذى يفسره الملطى على أنه مذهب من مذاهب الزنادقة . ويفسر رؤى عباد البصرة على أنها حصول على خيرات الجنة في هذه الحياة ، حصولاً مادياً ، وفي هذه الحالة يعلن الملطى كما يعلن أبو داود السجستاني زنادقة هؤلاء وخروجهم على الإسلام . ولكننا إذا قرأنا أقوال أبى طالب المكي في قوت القلوب والزبيدي في إنحاف السادة وأحمد ضياء الدين الكشخاني في جامع الأصول في الخلعة والروحانية لوجدنا معانى إسلامية بحتة ، وتطور هاتين النظريتين في أوساط التصوف السني ، وتحتاج المسألة إلى بحث واسع .

ومع هذا فلا ينبغي أبداً أن ننسى أن نتائج المذهب أقوى من مقدماته ، وأن العبرة فيه هي في التفسير . وتتعدد التفاسير ، وينحى السياق .

وأود أن أنتهى من هذا كله أن رابعة شاركت في نظرية الخلعة التي ظهرت في أوساط البصرة بين عبادها أو بين ملاحظتها وإباحيتها . فهل انتهت بها العبادة إلى هذا ، إلى مقام الخلعة ، مقام إبراهيم ، ثم مقام محمد مقام قاب قوسين أو أدنى ، أما أنها خلعت العذار وقد أباحت جسدها لجليسها ، وألقت الخمار — نهارها المشهور — هنا تختلط الحقيقة بالأسطورة والخيال بالتاريخ . وهنا نصل إلى النموذج الثانى : النموذج الفلسفى ، متبدياً في صورة شطحات .

وكان أول شطحة لها — نتيجة لآرائها أو لنظريتها في الخلعة ، فالخليل يغار على خليله ، ولا يرضى أن ينظر لسواه . ونرى الكلاباذى (وهو من أقدم مؤرخى التصوف) يقول في التعرف «دخل جماعة على رابعة يعودونها من شكوى . فقالوا : ما حالك . قالت : والله ما أعرف لعلتى سبياً . عرضت على الجنة ، فلت بقلبي إليها . فأحسب مولاي غار على . فعاتبني . فله العتبي (٢) » . وعلق الكلاباذى على هذا بأنه من لطائف الحق بهم في غيرته عليهم... ثم تبدأ في شطحات الدلال ، فتصبح أمام الشيخ الكبير مالك بن دينار «كم من شهوة ذهبت لذتها ، وبقيت تبعها يارب . أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار (٣) »... وبعد : فها هي تعدو مسرعة في شوارع البصرة أمام جماعة من الفتيان ، وفي إحدى يديها نار وفي الأخرى ماء... وسألها الفتيان : أيتها السيدة : إلى أين أنت ذاهبة ؟ وماذا تبغين . فقالت : أنا ذاهبة إلى السماء... حتى ألقى بالنار في الجنة ، وأصيب الماء في الجحيم ، فلا تبغى

(١) أبو نعيم : احلية ج ٢ ص ٣٧١ .

(٢) الكلاباذى : التعرف للمذهب أهل التصوف ص ١٣١ والمناوى . طبقات ١١٠٥ .

(٣) المناوى : طبقات ١١٠٥ .

الواحدة ولا الأخرى.. إنها لا تريد الخوف ولا الرجاء . تريد أن يبقى الله ومحبه (١) . بل إنها تأسف لأهل الجنة أن شغلهم بغير الله . إنهم يريدون فقط نعيمها المادي (٢) .

وتذهب إلى الكعبة للحج على ذاتها ، ثم تذهب مرة ثانية «مقلبة» على أضالعها — ثم تين لها — وقد وصلت إلى مرتبة الخلة أن الكعبة «هذا الصنم المعبود في الأرض ، وإنه ما وجه الله ، ولا خلا منه» (٣) وقد أنكر ابن تيمية أن يصدر عنها هذا ، ونحن نعلم أن هذه الفكرة قد نشأت فيما بعد — على يد أبي يزيد البسطامي ، ثم ظهرت في صورتها الكاملة عند الحسين بن منصور الحلاج . فهل كانت رابعة رائدتها . أو أن المتأخرين ممن اعتنقوا فكرة الحج بالهمة نسبوا إليها هذا القول ، نتيجة خاطئة لمذهبا في الخلة ، وأنه لم يعد بينها وبين الحبيب حجاب ، ولم تعد ترى السعى إلى بيته ، حين أصبح بيتها هويته ... وقد أضفى فريد الدين العطار خياله الخصب على مواقفها من الحج . فالكعبة تنتقل إليها ، ولا يجدها إبراهيم بن أدهم ، ... لأن الكعبة ذهبت لمقابلة رابعة ... ثم رابعة في حالة الصعق ، لا ترى غير الله ، فلا البيت ترى ، ولا غير البيت . إنها ترى رب البيت فقط . ولقد أقام العطار بناءً صوفيًا على صحاح رابعة ، ... ثم اعتبر رابعة «مریم الثانية» وخادمة الصديقة عائشة (٤) . ثم تأتي قصة «الخمار» خمارها التي حملته في صلاتها ، ثم في تهجدها الليلي الطوال ، ثم تضعه حين تناجي الحبيب وما هي تقول «لو وضعت خماري ما بقي بها أحد» (٥) .

هل هي هنا في مقام الوحدة؟ إن ابن خلدون يسوي بينها وبين أبي يزيد البسطامي ، وهو يشطح «سبحاني ما أعظم شأنى» ... و«جزت بجرأً وقف الأنبياء بساحله» ويقرر أن حال الغيبة والسكر استولت عليهما ، حتى تكلمتا بما ليس فيه الكلام .

وأخيراً ... يأتي عز الدين بن عبد السلام المقدسي فيضعها في ميدان المحبة ، في «الواقعة» في الغار ، غار محمد ، هناك في مقام المعية (٦) ، منادية :

كأسى	وخمرى	والنديم :	ثلاثة	وأنا المشوقة	في المحبة	رابعه
كأس	المسرة	والنعيم	يديرها	ساقى المدام	على المدى	متابعه
فاذا	نظرت	فلا أرى	إلا له	وإذا حضرت	فلا أرى	إلا معه
يا	عاذلى	إنى أحب	جماله	تا الله	ما أذنى	لغيرك سامعه

(١) الدكتور بدوى : رابعة ص ١١٢ . (٢) المناوى : طبقات ١١٠٥ .

(٣) ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٨٠ - ٨١ .

(٤) العطار : تذكرة الأولياء ج ١ ص ٥٩ ، ٧٣ نشرة نيكلسون والدكتور عبد الرحمن بدوى : رابعة ص ٤٢ - ٧٣ .

(٥) ابن خلدون : شفاء السائل لتهديب المسائل ص ٥٥ .

(٦) عز الدين بن عبد السلام المقدسي : شرح حال الأولياء ص ١٢٥٣ .

وكان لرابعة ، الحقيقة أو الأسطورة ، أعظم الأثر في الصوفية من بعدها وأعظم الاحترام . فبرى ابن عرى أنها في رتبة الشيخ عبد القادر الجيلاني وأبي السعود بن شبل ، واعتبرها هي والجيلاني وابن شبل من « السائرين إلى الله بعزائم الأمور ، وأنهم ربطوا همهم على أن الرسول إنما جاء منها ومعلماً بالطرق الموصلة إلى خبايا الحق ، فإذا أعطى العلم ، بذلك زال من الطريق ، وخطى بينهم وبين الله ، فهؤلاء إذا سارعوا سبقوا إلى الخيرات لم يروا أمامهم قدم أحد من المخلوقين ، لأنهم قد أزالوه من نفوسهم ، وانفردوا إلى الحق (١) » .

أما بعد : فقد عرضنا للنموذجين من آرائها : ونعرض الآن لأثر آرائها في رجال النموذجين . فقد كان أثر رابعة كبيراً فيما بعد في مجرى التصوف الإسلامي ، التصوف التقليدي السني ، والتصوف البحث ، والتصوف الفلسفي . أما في دوائر الصوفية التقليدية السنية ، فقد اعتبر هؤلاء الصوفية رابعة في قمة المنازل الصوفية ، وبخاصة في مقامات الرضا والحب والخلة . أما في مقام الرضا ، فقد وضعها « صاحب القوت » في أعلاه ، عالية على سفیان الثوري ، تعلمه حقيقة الرضا ، أعلى مقامات اليقين بالله . أما في مقام المحبة ، فقد شغلت رابعة في مباحث القوت ، أكبر مكان ، وأخذ يشرح نوعي محبتها شرحاً صوفياً عميقاً ، فعرض لحب الهوى وحب ما هو أهل له . ويذكر أبو طالب المكي علوها على سفیان الثوري : وهو يجلس بين يديها قائلاً : علمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة . . . فتكلمه عن عبادتها لله ، في مقام الحب . وهنا يظهر صاحب القوت ، التصوف عالياً على الحديث ، ثم يذكرها بعد ذلك عالية على الزهد ، فرفض الزواج بشيخ العباد ، ثم بأمير البصرة محمد بن سليمان ، عالية على الجنة - المثلة في عبد الواحد بن زيد - وعلى الدنيا المثلة في محمد بن سليمان ، مستفرقة في البهاء الإلهي ، محترقة بحب الله (٢) . ثم يضعها في مقام الخلة ، أعلى المقامات عند قوت القلوب ومدرسته .

ومقام الخلة « هو مقام في المعرفة الخاصة » ومجديده « تخلل أسرار الغيب فيطلع على مشاهدة المحبوب ، بأن يعطى حيلة بشيء من علمه بمشيئته على مشيئته التي لا تنقلب ، وعلمه القديم الذي لا يتغير (٣) » كان رباح وكليب ثم رابعة رواه بل واضعيه . . . وأثر مقام الخلة في الصوفية من بعده : شقيق البلخي وإبراهيم بن أدهم وسهل بن عبد الله التستري ، ثم في السالمية وصاحب القوت نفسه (٤) : حتى ينتهي إلى أبي حامد الغزالي . ثم كانت رابعة من الروحانية وفسرها لنا أيضاً

(١) أبو طالب المكي : قوت القلوب ج ٢ ص ٧٦ ، ٨٠ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٣) نفس المصدر : ج ٢ ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٤) نفس المصدر : ج ٢ ص ١٥٠ - ١٥٦ .

أبو طالب المكي تفسيرات متعددة في كتابه ، في نسق إسلامي خالص تكشف لنا عن حقيقة هذا المصطلح ، وتطوره (١) .

ثم نرى أثر رابعة الكبير في آرائها عن الحب والخلة في مجموعة الصوفية على وجه الحقيقة الذين توالوا بعدها ، بحيث لا تخلو حياة واحد منهم أو آراؤه من هذا الأثر . واستخدمت أقوالها استخداماً صوفياً بجنا واصطنعت لتدعيم نظريات فلسفية غنوصية . فترد أسطورة حجها الروحي في حياة إبراهيم بن أدهم ، بل تجعلها الأسطورة يتلاحبان : وسنعود إلى بحث هذه الأسطورة حين نعرض لآراء إبراهيم بن ابن أدهم وتصوفه . كما نرى أيضاً في شطحات أبي يزيد البسطامي أسطورة رابعة وحجها ، بحيث يكاد يردد الآراء المنسوبة لرابعة عن « الكعبة » . وأثرت رابعة في ذى النون المصري - كما رأينا . أما أثر رابعة الصارخ فقد كان في مدرستين : مدرسة الشام ، ومدرسة بغداد . أما في مدرسة الشام فإن شيخها الكبير ، أبا سليمان الداراني ، يردد أيضاً فكرة الحب ، ويطلق أحاديث قدسية يضع فيها عبارات رابعة ، ثم أثرت رابعة البصرة في رابعة الشام . وفي مدرسة بغداد ، نرى أثر رابعة الكبير في الخلاج والشبلي . أثرت في نظرية الحب عند الأول وفي نظريته عن الحج بالهمة . وفي الثاني - أثرت في شطحاته عن الحب ، بل إنه يردد نفس أشعارها في مقام الخلة .

وهكذا نرى تباين أثر آرائها فهي إما امرأة صالحة زاهدة - من عابدات المسلمين القانتات عند البعض - وهي منشدة أغاني الحب الإلهي عند البعض الآخر . والمبشرة بالبهاء الإلهي - وإمكان الاتصال به . وهي صوفية في مقام خلع العذار تشطح وتلقى بالواردات والخطارات عند البعض الثالث وهي من زنادقة الصوفية عند البعض الرابع .

وأخيراً . . . أين امتدادها في مدرسة البصرة نفسها . لقد حمل سهل بن عبد الله التستري آراءها وتركها في أعماق البصرة ، في مدرسة سنكشف عن حقيقتها في فصل نال . . .

كانت رابعة وزملاؤها من أصحاب نظريات المحبة والخلة الرواد الأوائل لهذه النظريات التي سادت الحياة الصوفية فيما بعد ، وحين سأتكلم عن النظريات ، سزى إلى أي مدى تطورت ، وأقيم بناء آخر أو أبنية أخرى ، لا تتصل بمجهر نظرية المحبة أو نظرية الخلة كما تركتها رابعة ، وكما تركها رباح وكليب . ولكن لن نستطيع الآن أن نصوغ هذه النظريات ، قبل أن نعرض للمدارس المختلفة التي عاصرت مدرسة البصرة ، والتي شاركت مثلها في وضع أساس التصوف ، متقلة به من مرحلة العبادة والزهد ، حتى تصل به إلى التصوف . وسنتقل إلى أقرب المدارس إلى مدرسة البصرة ، وهي مدرسة الكوفة . .

(١) أبو طالب المكي : قوت القلوب : ج ١ ص ٤٨٦ ، ج ٢ ص ٨٨ ، ٨٩ ، ١٤٣ ، ١٥٢ ، ١٥٦ .